ثقوب

الكتاب: ثقوب (خسوف)
المؤلف: حميد عقبي
النّاشر: دار الدّراويش للنّشر والتّرجمة- كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية
Darawesch Verlag
العدد: ٥٤٦
الطبعة الأولى: مايو ٢٠٢٣
١٣٩ص؛ ٢١× ١٤ سم.

الكتب والدّراسات التي تصدرها الدّار إنما تعبّر بالضرورة عن آراء ووجهات نظر واجتهادات أصحابها، ولا تمت لرأي الدّار بأي صلة.

تم الإيداع فى المكتبة العامة في كاوفبويرن ألمانيا : ٢٠٢٣
بواسطة MVB
(ISBN) (ردمك) الورقي 978 - 3 - 98529 - 248 - 6
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي: بدر السويطي.
الصفّ الضوئي والإخراج الداخلي: محمود عنتر
فرز الألوان والتنفيذ الطباعي: دار الدراويش للنشر و الترجمة
المدير العام: بدر السّويطي

للتواصل:
الدّراويش للنّشر والتّرجمة
daraldarawesh@gmail.com
هاتف: 00491627040179، ص.ب: 87600
شارع لاينار هانغ رقم ٣١ - كاوفبويرن - جمهورية ألمانيا الاتحادية.

كافة حقوق النّشر، الطبع والاقتباس محفوظة، عدا حالات المراجعة والتّقديم والبحث والاقتباس العادية ذكرًا للمصدر؛ فإنه يحظر إعادة إصدار، نسخ، تصوير، ترجمة أو اختزان -ورقيًا أو إلكترونيًا- أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها في نطاق استعادة المعلومات -سواء كانت تصويرية، إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التّسجيل الفوتوغرافي أو التّسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة وغيرها-، دونما الحصول على تصريح خطي مسبق من النّاشر والإشارة إلى المصدر.
وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع -دون موافقة كتابية- يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.

ثقوب

حميد عقبي

الدّراويش للنشر والتّرجمة ©
AL-DARAWESH FOR PUBLISHING & TRANSLATING
WWW.DARAWESH.COM

جمهورية ألمانيا الإتحادية -كاوفبويرن
Kaufbeuren – Germany
2023

الإهـداء

إليك يشتاق القلب، ويلوح الخيال من بعيد.. حتماً سنعود إليك يمننا الحبيب

مقدمة مختصرة

تأخرت كثيراً في إصدار مجموعتي القصصية الثالثة، ليس بسبب البُعد عـن كتابة القصـة القصيرة، إذ كتبـتُ قصصا كثيرة، ثـم وجدت بعضها ستكون أفضل في قالب، وشكل السيناريو السينمائي، كما أني نشرت بعض القصص على مواقع أدبية، وبعض هذه المواقع خربت، وضاع أرشـيفها، كما أن تأسـيسي، ونشـاطي في المنتـدى العربي الأوروبي للسـينما والمسرح، منذ ديسـمبر 2018 قد أخذ الكثير من الوقت والجهد في تنسيق فعاليات متنوعة أدبية، وسـينمائية ومسرحية، ولا يزال هذا النشاط مستمراً، ويثمر ثلاث فعاليات، وندوات على الأقل في الأسـبوع بحصيلة عشر ساعات ثقافيـة تقريباً، ثمرة هذا الجهد تجدونه منشـوراً على قناة يوتيوب، الأعمال الإدارية، والتنسـيق والتواصل، ثم إقامة الندوات، وبعد ذلك التسـجيل والنشر، وكتابة ملخصات، وأشـياء كثيرة تأخذ على الأقل ثلاثين سـاعة عمل، مع ذلك تظل للكتابة لذتها وفرحتها، خاصة القصة القصيرة.

كـما أن توجهـي للرسـم منذ أبريـل 2020 أحـدث متغـيرات كثيرة بداخـلي، ونتـج عن هـذا النشـاط أكثر مـن 200 لوحة زيتيـة وأكرليك بمختلف الأحجام، ثم التواصل، وعمل عشرة معارض تشكيلية خاصة، لقد تعددت نشاطاتي الإبداعية بالإضافة إلى مشاغل الحياة وارتباكاتها.

لا أبحـث كثيراً عن اعتذارات لتأخري، وقلـة إنتاجي القصصي، منذ 2016 صدرت لي مجموعتان قصصيتان إلكترونيتان منذ 2016 (كارمن)

و (محطة مدينة كون) والآن أضع بين أيديكم هذه المجموعة الثالثة متمنياً أن يجد القراء فيها بعض المتعة.

لا أحبذ الإطالة، وأظن أن شرح الكاتب قد يُفسد المادة الإبداعية.

لكم خالص المحبة، ولكل من ساهم في صدور هذه المجموعة.

العم عمر

تتحوّل معصرتنا إلى منتدى حكايات، فهي أشهر معصرة زيت سمسم في المدينة. يأتي الزّبائن لشراء زيت السّمسم، أو العصارة، والتي تنتج من قشر حبّات السّمسم، وتستخدم لتغذية الأبقار. وجوه كثيرة على مدار اليوم، وهنالك من يأتي، ليستظلَّ تحت سقفنا، وينعم ببعض الماء البارد. كانت هذه المعصرة تقليديّة تعتمد في جرّها على الجمال. تعلّمت في هذه المعصرة حبَّ الحكايات، وكأنّها مختبر سرد من طراز فريد.

هنالك حكايات قد تكون غير مسموح لي بسماعها، وهي خاصّة بالكبار، يتحدّثون عن اللّيل، وما يفعلونه مع زوجاتهم، وقد ينهرني أبي ، أو يكلّفني بمهمّة تبعدني عن المكان، كالذّهاب لجلب ماء بارد، أو شاي، وصرت أعرف أنّي غير مرغوب فيّ ، لسماع حديث الرّجال، وما يفعلونه في أثناء اللّيل، هنالك رجال يستمتعون بقصِّ أدق التّفاصيل اللّيليّة، ولم أكن أفهم، ولا أضحك لضحكاتهم، وكأنّهم يتبادلون الخبرات، كان ما يشدُّني أكثر العم عمر، فهذا الرّجل ربّما يكون عمره في نهاية الخمسينات، إلّا أنّه يتمتّع بصحّة جيّدة، وهو الحارس اللّيلي لحارتنا، ويبدأ عمله من بعد صلاة العشاء إلى الفجر، في النّهار ينام، وعندما لا يأتيه النّوم يأتي عندنا، يلفُّ على وسطه مئزراً شعبيّاً أبيضَ إلى الرّكبة تقريباً، ويلبس فانيلّا بيضاء، يعشق الحناء، لذا، بشرتُه .. تميل إلى اللّون الذّهبي نوعاً ما.

تدهشنا حكايته عن اللَّيل، وأسرار اللّيل بزقاق الحارة، وهذه الحكايات تختلف عن الحكايات الجنسيّة الّتي يتبادلها الكبار، حكاياته غرائبيّة عن الجنِّ، والعفاريت والسّرقة، والّذين يخرجون ما بعد منتصف اللَّيل، يتحدّث عن بطولاته في الحراسة، وخاصّة في اللّيالي الممطرة، والمظلمة بسبب انقطاع الكهرباء، فالجنُّ يخافون من النُّور، وهم أكثر حرّية من منتصف اللَّيل إلى قبل صلاة الفجر، وبحسب رواياته بعضهم لا يضرُّون، بل أصبحوا من أصدقائه يمرّون في حال سبيلهم، ويسلّمون عليه ويسلّم عليهم، اللّيل للجنِّ حياة وحركة، فلهم ومنتدياتهم وحياتهم الخاصّة، ومنهم الأشرار يتمثّلون في شكل كلاب متشرّدة قذرة، وهؤلاء لا ينفع أن تخافهم، أو تُشعرهم بخوفك، وعليك أن تتسلّح بعدّة أشياء، ولعلَّ هذا ما جعله يحمل طوقاً فضِّيَّاً على ذراعه اليمنى مفتولة العضلات كحرز يقيه شرّهم، وكذلك حفظ بعض آيات القرآن خاصّة آية الكرسي، وبعض التّمائم يضعها في حزامه.

كل يوم يكاد يروي لنا حكاية مرعبة فيها الكثير من الفنتازيا والدّهشة والخوف، هنالك شخصيات من الجنِّ أصبحت بمثابة حقيقة منها الجنِّي الّذي في مؤخّرته ملعقة، وهو الأكثر رعباً وبشاعة.

لا أدري هل حكايات العمر عمر هي الّتي رسّخت في ذهني هذه الخرافات، فذات مرّة عند عودتي من بيت أحد رفاقي للمذاكرة بحدود التّاسعة ليلاً، من عادتي أن أسلك الزّقاق القصير بخطوات سريعة، إذا كان خالياً، وفي تلك اللّيلة قلت لنفسي سأسلك حوش المعصرة، فهو

لا يبعـد إلّا خطـوات عن باب بيتنـا، كلّما تذكَّرت ذلك الموقف شـعرتُ بقشـعريرة كأنّي أعيـش الموقف، حتّى لحظـة هذه الكتابة، وقد يشـعر بها بعضكم الآن يبدو أنّي ليلتها شـعرت بأنّي شـجاعٌ مثل العم عمر، لا أفهم مَن دفعني لذلك الطّريق، بعد خطوات عديدة تجاوزت بالداخل، وكنت رسـمت بداخلي قبل الولوج بالسّـير قُدُماً دون الالتفات يميناً أو يسـاراً، وأن تكون خطواتي شجاعة ومتزنة دون خوف .. فماذا حدث؟

بعـد أقـل من خمـس خطـوات التفتُّ نحـو جهة اليسـار، هنـا كانت الفجيعـة، نعم هو الجنِّي في الزاوية جسـده مطلي كامـلاً بالحناء وبخلفيته ملعقة، كان ملتصقاً في الزّاوية، تسـمَّرت قدماي، أصابتني رجفة فظيعة، شـلل تـامٌّ أفقدني الذّاكـرة للحظات ربّما، لا أدري كم مكثت مشـلولاً لا أتحـرّك. حاولـت أن أتذكَّـر آيـة الكرسي، نعـم أحفظها عـن ظهر قلب، أحـاول التّحـرر، وتحريك جسـدي قبل أن يخطـو نحـوي، زادت دقّات قلبـي، تصبَّب جسـدي عرقاً، أدركـت أنّها نهايتي، رفضت الاستسـلام، بـدأت أتذكّـر، «الله لا إله إلّا هو الحـي القيُّوم» بدأت أتذكّـر، وأتلو مرةً تلـو مرة، كأنَّ قوّة غريبة أوقفته عن التّحرّك، بدأت عقدة قدميّ تتحرّك، أنتزعهـا بصعوبة بالغة، كي أخطو أوّل خطوة، ثمّ الثّانية، ثمّ الثّالثة، أتلو بصوت مرتفع، كم مرَّ من الوقت؟

لا أتذكَّر إلّا أنّي بعدها اسـتطعت الرّكض إلى أن وصلت باب البيت. لم أشعر بالأمان إلّا وأنا في داخل البيت، والكلّ تقريباً نيام، يا إلهي ، أحقّاً نجـوت؟! وضعـت كتبي، وأسرعت لسريـري مبـاشرةً، وغطّيت نفسي

حتّى رأسي، وأنا أتلو ما أحفظه من تعاويذ وقرآن مخفياً ما حدث معي عن أهلي . في الصّباح بدأ جسدي منهكاً ووجهي مصفرّاً، أدركت أنّي أصبت بالفجيعة، وكانت من عادتنا أن نذهب يوم الجمعة إلى شخص يسمّى الدّبّاش يقوم بمعاينتنا وتوسيمنا، فالكي بالنّار هو العلاج النّاجع من الفجائع، ولم أكُنْ أحبُّ هذا المشوار، لكنّي شعرت بحاجة للعلاج من تلك الفجيعة المرعبة.

جاء يوم الجمعة، وكنتُ أوّل المتحمّسين للدبّاش، عندما وصلنا، تفحَّصنا بعينيه، طلب منّي الاقتراب أوّلاً، لديه ما يشبه الإبر يضعها في موقد من الفحم حتّى تصفر، فحصني عن قرب، خلعت الفانيلّا، أخذ الوسام، وضعه بلسانه أولاً، ثمّ كوى به ظهري، وبطني، ورأسي، كأنّه عرف الحكاية الّتي أخفيتها، أو هكذا بدا لي، شعرتُ أنّي تعالجتُ، وهدأ الرّعب في داخلي، ورغم كل هذا بقيت مولعاً، وأنصت لحكايات عم عمر اللّيليّة.

رجفة

كلما عزف المطر أغانيه، تُزهر الابتسامات، ضحكات البشر والحجر، نمتطي الحافلة من الباب إلى التحرير، واحة سردية

المغني

«يا أحبة ربى صنعاء

سقى الله صنعاء»

يردد ركابها

يريحهم.. جنة الله في أرضه

حافلة متهالكة، تقاوم الزمن، وتلك المطبات التي تجعلك تشعر كأنك تمتطي جَملاً غير مدرب بمهارة، لكنه يمتلك الشجاعة، هي أيضاً ترأف بحال صاحبها الذي يُقسم بالله العظيم أن زوجته في أواخر حملها، وينتظر طفله السابع، ولكن ليس باليد حيلة، لعلها أدركت أن أي عطل يصيبها بمثابة كارثة ستحل بالمسكين، سبعة ركاب هو الحد المسموح لهذه الحافلة الصغيرة، يشير أحدهم إلى الرصيف، والسيل يصل لنصف ساقه.

يستدير السائق برأسه مستشيراً الركاب

السائق: مسكين ..لكن ما بيش مكان

يصرخ أحدهم: الوسع بالقلوب، وإلا ما يش رحمة

توافق الأغلبية، وتحضّ السائق أن يتوقف.

يبدو منسوب الماء مرتفعاً في تلك المنطقة، هنا يخوض السائق معركته بحرفية، الرؤية غير واضحة، والمخاطرة ليست سهلة.

تعودت على هذه المواقف الدرامية، وانتقلت من تأمل وجوه هؤلاء الركاب إلى معانقة بصرية لجمال سور صنعاء القديم، وما يخفيه خلفه من جمال أنيق وساحر. يأتيني شعور متجدد كلما أمعنت النظر في هذه الدهشة، كلما مررت، ولا يمكن أن أفوت زيارة لسوق الملح، وعبق عطوره وبهاراته، لكنني للتو وصلت، ولم أجد تاكسي يوصلني ، فاضطررت لركوب حافلة تشبه سفينة الفقراء التي شق الخضر لوحاتها، ليعيبها.

المدهش هو إيمان هؤلاء، يرون أنفسهم في الجنة، علامات الرضا رغم كل شيء بادية عليهم، ملابسهم الرثة، التعب المختوم على وجوههم، يحمدون ويشكرون الله في كل حال، ويقبلون ما يأتي به القدر، ظننت أن الرحلة لن تتجاوز ربع ساعة، لكن تقديراتي تبدو متفائلة.

يبدو سائق الحافلة كقائد لا يقبل الهزيمة، يقود تحديا صعبا للوصول لذلك الشخص الواقف والمستنجد بنا. المعركة أصبحت معركة الجميع، الكل متفاعل مما جعلني أستيقظ من حلم يقظة، تمنيت ألا ينتهي، لكنني الآن أعيش تفاصيل دراما من نوع آخر، فالصراعات متعددة، وإيقاعاته تتصاعد بشكل مثير للغاية.

توقعت أن ننتصر على الطبيعة في هذه المازحة العابرة والصغيرة، برغم أن الجو العام بحافلتنا كأنه فعلاً بمعركة مصيرية. دغدغتني

ابتسامة داخلية، وبدأت المشاركة بالهتاف، هنالك شيخ مسن بجانبي بدأ يتلو مقتطفات قرآنية ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِى يَنصُرُكُم..﴾

وفي الجانب الثاني كان رجل بدوي ينشد أهازيج شعبية، أصبحنا عالماً متفرداً، وها نحن فعلاً كسفينة نوح، تسكبُ السماءُ ماءها، ويبدو أن الأرض هي الأخرى تلفظ أنهاراً وبحوراً غاضبة. تحول الحماس إلى استغاثات، وبدأ الخوف يميد بنا جميعاً، وكأننا وقعنا بمنخفض مائي ، أو غادرنا اليابسة إلى البحر، وكان سائقنا قد خطط أن يلف عدة لفات، ليصل للشخص، لكننا فقدناه، أو نحن في عالم آخر، تتعذر الرؤية تماماً، ولم نعد نرى بعض ملامح صنعاء القديمة، عبر زجاج النوافذ التي فقدت بريقها بفعل شيخوختها الطاعنة.

يبذل سائقنا جهداً خرافياً، وهو يمسك المقود بقوة وحرفية داعياً الجميع للدعاء، أدركت أننا بورطة، رجفة البرد والخوف تصفعنا، أحسستُ بها فبدت ملامحي كوجه ميت، وكذلك الجميع هنا مشروع موتى، همهمات تناجي الله أن نخرج من المحنة، فنحن سبعة، وثامننا الموت الآن، ولم نعد نسأل عن مصير ذلك الشخص، وماذا حدث له، وكيف تبخر؟

يارب لطفك.. يا رب السلامة وكل عبارات الترجي، نهتف بها هتافات وهمسات، لكن الوضع يزداد تعقيداً، وقوة السيل تزداد عنفاً وقوة، أرجلنا مبللة بعد دخول الماء، نتمسك ببعضنا البعض، ننظر

للخارج بصعوبة، لا شيء غير المطر والماء والسيل العرم. أيعقل أن السيل قـذف بنا خارج صنعـاء؟! بدأ بعضنا يعـد بالنذور إن نجونا بالسـلامة. بـدأت الاعترافات بالذنوب الجسـيمة، والنية على التوبـة مع ترديد أدعية الترجي، كأننا نمارس كل تقنيات الاسـترضاء والدعاء والمناجاة، ووصل الأمر بأحدهم أن أقسـم بذبح ثور سـمين، وتوزيعه للفقراء، واكتشـفت هنا أن الحياة غالية، فحتى الرجل السبعيني زاد في النذر بذبح ثورين فقط أن ينجينـا الله، وهكذا بدأ المـزاد بالذبائح، والتبرع بالمـال، والرجوع عن الخطايا، وأصبح مطلوباً مني المشاركة.

لا أملـك إلا بعـض المـال لقضـاء ليلـة صنعانية تمتـد إلى الفجـر، ثم سأسـتقل سـيارة تقودني للمطار، وبحسـب مخططي أصل ظهراً باريس، وأسـتخدم البطاقة البنكية، أو دفتر الشـيكات، لشراء تذكرة القطار، ولا أدري إن كانت منحتي المالية صرفت أم لا، ليس لي قدرة أن أشتري كبشاً سـميناً، الكل يعترف بذنوبه المخفية، فهـل أخترع ذنباً صغير اً أصرح به، هل لي ذنب؟ هل أذنبت؟

بدت الأسـئلة محرجة، داهمتني حمى، أتصبب عرقاً، أرتجف كرجفتهم والمطلوب مني أن أصرح بذنوبي الخفية، وأعلن نذري.

سهرة بيجاما

يحل المساء أخيراً، يلبس بيجامته الدافئة، يجلس أمام جهاز الحاسوب المحمول، يستطيع أن ينعم بلحظات ممتعة، يعرف أخبار أصدقائه على الفيس بوك، هذا الأزرق يغريه لساعات قد تطول إلى بداية ظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود، يملك ثلثمائة صديقة وصديق افتراضي، لكنه يرى أخبارهم وأخبار أصدقائهم. حرص أن يكون له من كل بلد صديق أو صديقة، ليعرف عادات وتقاليد متنوعة.

يفتح صفحته الآن، ونظره يتجه نحو الرسائل، مرت الثواني الأولى، لا توجد أي رسالة، ينتابه بعض الحزن، ولا يفهم لماذا يشعر بالسعادة، عندما يجد ولو رسالة واحدة، حتى عندما تحمل كلمة واحدة، لم يجد أيضاً أي إشارة إعجاب على أي من منشوراته الحديثة أو القديمة، لم يجد ردوداً على طلبات الصداقة التي بعث بها مساء البارحة عقب عودته مباشرة من الحانة. يزداد توتره، يتحول إلى قلق مرهق.

يسمع صوتاً يأتي من صفحته، ثمة رسالة وصلته الآن، يسارع لفتحها، يكتشف أنها تحذيرات، ونصائح بألا يرسل طلبات صداقة لأشخاص لا يعرفهم، وإلا ستتعطل صفحته، أو يتم حذفها مراعاة لحقوق الخصوصية.

هنا كمن تلقى صفعة مؤلمة، يُحسّها على خده ورقبته، يُحسّ بنوع من

الإهانـة من أولئك الذين بعث لهـم مؤخراً، يتذكر أنه بعث لثلاث فتيات التقاهن في الحانة، من هي الحقيرة التي شكت به، أو بلغت عنه؟

أتبلـغ الحقـارة أن يتحول إلى مشـكوكٍ فيه، وربما تُلغى هذه المسـاحة التي يشـعر فيها أنه على تواصل مع العالم، وأنه ليس سـجين هذه الجدران الكئيبـة، هـذه الأرضيـة الباردة. ينظـر إلى غرفتـه العارية من متـاع الدنيا وزخرفهـا، ذلك المطبخ مسـاحته نصف متر، وكذلـك الحمام مع خرطوم قصير للاغتسال.

يشـعر أن كرامته مجروحة، وأن خنجراً مسـموماً ينغرس في ظهره. هو يعرف البنات الثلاث كونهن من نفس المدينة، وسـبق أن تحدث معهن في إحـدى الحانـات (لويز وفانيـا ولي لي)، يغوص في حلـم يقظة، يرى لويز بيدهـا كأسـها تضاحكـه، بينما تظل لي لي مبتسـمة، ثم تـأتي فانيا تعرض عليهـم التدخـين خارج الحانـة، ثلاث فتيـات يختلفـن في طباعهن، لكل واحـدة ما يميزها. ليلتها قضى معهن سـاعة واحـدة، أحسّ بقربه منهن. حـان الوقت لتكون له صديقـات واقعيات، لذلك طلب منهن أن يضفنه عـلى الفيس بوك، وأخذ عنـوان صفحة لويز، وفيها عثـر على فانيا ولي لي وأرسل لهن طلب صداقة.

يتحول حزنه فجأة إلى الشعور بالظلم والقهر، ثم إلى ثورة عندما وجد نفسـه ممنوعـاً من دخول صفحـة لي لي، وكذلك لا يـرى أي صور لفانيا، ولا يرى قائمة صداقات لويز التي يبدو أنها لم تفتح رسـالته الأخيرة، هنا

يتحـول الأزرق إلى أسـود وقاتـم، لم يفهم لماذا يتصاعـد توتره، وكيف في لحظة يضرب بيده غاضباً؟

تتحـول هذه المشـاعر لكتلة تشـتعل بداخله، ثم صوت مـا يدعوه إلى الانتقام لكرامته، وتلقينهن درسـاً بليغاً في احترام مشاعر الناس، والوفاء بالوعد، وعدم الغدر. تتعاظم الحرائق في صدره ورأسـه، وأصوات قوية يسمعها تحضه على الثأر لكرامته، وتقدم له الخطط لتأديبهن.

تتعالى الأصوات حوله، تهمس في أذنه تارة، وتصرخ تارة أخرى.

يهمـس الصوت عـن يمينه: يسـتحققن فعلاً التأديب .. أنت شـاب وسيم، فلماذا سخرن منك؟

يهتف له صوت آخر عن يساره: انهض، لتنتقم لكرامتك المبعثرة.

يصرخ فيه صوت من الخلف: يستحقن الذبح.. الذبح.

تردد بقوة الأصوات الثلاثة: نعم الذبح.. الذبح..الذبح.

تمر اللحظات بسرعة يكاد يكون مقتنعاً بضرورة الانتقام، ولكن كيف ومتى؟

ترد عليه الأصوات: الآن.. الليلة.

إنها ليلة ممطرة، باردة وكئيبة، ليتها تُمطر على قلبه وعقله، لتُخمد براكين غضبـه، لكن يبدو أن الوقت متأخر لخطـوة للوراء، للصفح ويصعب أن تنطفـئ نار الانتقـام. الآن ينصب تفكيره على الكيفية، ولا يريد أي نقاش حول منطقية ما يريد فعله.

يعود إلى صفحات البنات الثلاث، ويبحث عنهن في أنستجرام.

هـا هي الأقدار تسـاعده عندما يجد صفحة لهـن الثلاث، وصورة لهن في حفلة خاصة بسـكن لويز، وسكنها ليس بعيداً عنه، يجد صورة للمبنى الخارجي تمكنه من معرفة العنوان.

أشـياء خفيـة تدفعـه إلى فعـلٍ مرعـبٍ، ينهـض، يبحث عـن شيء ما بالمطبخ، يجده، يمسـك به، يتأمله، هذه السكين السويسرية اشتراها قبل أيـام قليلة، لم يكن يتوقع أن يشـتري مثل هـذه الأداة الحادة، كونه لم يفكر بذبح دجاجة، وها هو الآن يخرج في هذا الطقس ليذبح ثلاث فتيات.

في الشـارع، يدخـل إلى محل لـشراء قنينة ويسـكي، يـشرب جرعات سريعـة، ليهـزم الـبرد، ينفـخ في وجـه الريـح، يبصـق عـلى كل شيء عن يمينه ويسـاره، لم يعد يشـعر بلذعة الخمر، تتدفق الحرائق في رأسه، يشعر بالحراراة، جسـده يسـخن أكثر وأكثر مع كل خطوة يتقدم فيها إلى مكان وجود البنات، كأن الأرض تنطوي له، ها هو يصل الآن، يتحسّس سكينه، يقترب من باب المبنى، تخرج سـيدة لتمشـية كلبها، يُسرع بالدخول، أمام صناديق البريد يجد اسم لويز، يتأمل صندوقها، يقرأ الدور الثالث.

كأنه سـفاح محترف، الظروف تبدو مسـاعدة، المبنى يسـوده السكون، ولا توجـد كاميرا مراقبة عند المدخـل، لم يجد صعوبة في الدخول، يتحرك ببطء لصعود السـلالم، ها هو الآن خلف الباب، يسمع ضحكاتهن، يميز كل صوت وضحكة، يسـتحضر وجه كل واحدة، هن الآن في سـهرة بيجامـا، ينظـر إلى ملبسـه يا للصدفـة! لقد خـرج بالبيجامـا لم يفكر بهذه المصادفة، خرج مسرعاً، ووضع على جسده معطفاً بالياً كئيب اللون.

الأصوات ترافقه. ها هي تهمس في سمعه همسات هادئة ومشجعة، ينظر من ثقب الباب، يشاهد البنات الثلاث في فرحهن، تبدو أجسادهن شهية، تظهر لويز تحمل صينية، تتذوق منها بطرف إصبعها، يبدو الشيء بالصينية ساخناً، يرى لي لي ترفع سروال بيجامتها القصير، فيظهر سروالها الداخلي، تحسحس على ساقيها وفخذيها، تطلي لويز الفخذ الأيسر بمادة، يفهم أنها الحلاوة لإزالة الشعر الزائد، تتعالى ضحكة فانيا مشجعة صديقتها.

يتسمر في مكانه، لمتابعة المشهد بتفاصيله، ويضيف عليه من خياله بعض المؤثرات. ثقب الباب يصبح عدسة كاميرا، يتحول إلى المصور لما يحدث، وبمقدرته التركيز على الوجوه والسيقان، ثم ينتقل إلى الأفخاذ والصدور، يستمع إلى نكات جنسية وقحة، يتابع حركاتهن العبثية الماجنة. هو لم يفكر بهذه الأجساد، ولم تحركه دوافع شهوانية، كونه يعرف كيف يتخلص من ثوران الشهوة. خلف محطة المدينة بائعات هوى رخيصات جداً يعرضن خدماتهن بمبالغ زهيدة، وخاصة في الليالي الباردة الممطرة، يدفع عشرة يورو فقط لواحدة لا تتضح ملامحها بسبب الظلام، وهي تقوم بالتفريغ بطريقتها الماهرة بمداعبة أشيائه الذكورية. تلك العاهرة تعرف طلبة، وتنهي المهمة بأقل من ثلاث دقائق، ثم يستخرج منديلاً من جيبه ينزع الواقي الجنسي، ويلفه بالمنديل، يعيد سرواله ويمضي خفيفاً، ولا يتأسف على المبلغ. يقول هذا أرحم من كثرة ممارسة العادة السرية.

هو الآن هنا لينفذ حكم الخيانة والغدر، وينتقم لكرامته المهدورة،

صـوت خافت يحثـه على التراجع، يبـدو أن الثواني القادمـة ليس للتفكير بالدوافـع. حرارتـه أصبحت مرتفعـة، يتصبب عرقاً، يدفـع الباب، يجده مفتوحـاً، السـكينة في يـده، يقبـض عليهـا بشـدة، أنفاسـه حـارة، عيناه متوقدتان بالشرر.

فتاة المولون روج

لا يزال شارع بيجال يعج بالحركة التي لا يوقفها الزمن، ولا الطقس لا يأبه هذا الشارع الباريسي بعقارب الساعة، ولا تلك السحب التي ترص صفوفها منتظرة طبول الرعد، لتغسل أرصفته مما قد تتركه الأمواج البشرية من أعقاب السجائر، وعلب الجعة وكذلك قناني الفودكا، تشير عقارب الساعة إلى الثانية بعد منتصف الليل كان جالساً على رصيف حانة مجاورة للمولون روج يتأمل هذه التدفقات البشرية التواقة للذة، عاهرات يبحثن عن زبائن لا يفاصلون في الثمن، وزبائن يدققون في تفاصيل هذه الأجساد اللذيذة.

محلات كثيرة لبيع أدوات جنسية، وصناديق أتوماتيكية لشراء الواقيات، والتي توزعها بعض الحانات مجاناً. عند دفعه الحساب منحته النادلة الجميلة واقياً جنسياً كهدية، متمنية له ليلة سعيدة، ضحك وشكرها معتذراً أنه سيذهب للنوم مباشرة.

ابتسمت قائلة : خذه قد تصادف عند عودتك رفيقة لبقية ليلتك.. أنت في بيجال وكل شيء مباح.

رد : أشكرك بعد ثلاثة أقداح كبيرة من الجعة، أظن أني بحاجة أن أصل إلى سريري، سأقضي الليلة بفندق الزهور هو ليس بعيداً ربما تعرفينه.

ابتسمت كأنها أحست أنه يدعوها

النادلـة: أنا فقط نادلة هنا، ولا أقبل الدعوات من زبائن الحانة، ولدي رفيق وحياة خاصة ولست ...

قاطعها معتذراً: آسف لم أقصد

هزت رأسـها مبتسمة: ولا يهمك .. تعودنا على كل أنواع البشر هنا. ليلتك سـعيدة انصرفت، أحس أنه جرحها، ودعها بنظرة من عينيه، فقد كانـت فتاة مغرية في كل شيء، ترك طاولته مرتبكاً، ولم يأخذ تلك الهدية، شـعر أنه بحاجة للمشي، بدأ الطقس يتغير، نظر إلى الأعلى متمتماً في نفسه سـتمطر بلا شك، أكمل مشيته، ليتوقف أمام المولون روج، لفتت انتباهه فتاة مع رفاقها، بدت مختلفة بثياب رثة تدفن الكثير من جمالها، ظل يحدق، اقـترب أكثـر، دون أن يلفت انتباههـم كونه يعلم عنف هـذه العصابات الصغيرة التي تبيع الحشـيش، وكل أنواع المخدرات. تبدو الفتاة مخمورة، دقـق في وجهها الطفولي، يدهـا التي تبدو مجروحه، تشـجع ليكون قريباً، ويسـمع، لا شيء مهـم في أحاديثهم، ظل يسـترق النظـر، وفكر أن يلفت نظرهـا، أخـرج علبة سـجائره، هنـا لمحهـا تنظر إليـه، ثم تقـترب طالبة سيجارة، يبدو أن حيلته نجحت.

هي: مساء الخير.. لو ممكن تعطيني سيجارة

رد مبتسماً بلطف:مساء الخير.. بكل سرور

مد يده ليعطيها سيجارة، أخذتها بفرح

سألها: أنت مع رفيق لك هنا؟

ردت، وهي تشعل سيجارتها: لا لا رفيق لي، ولا أهل

تشجع ليدعوها لكأس، وهو ينظر إلى المولون روج :. لو تحبين نذهب لشرب كأس؟

نفثت دخان سيجارتها يميناً مقتربة منه

ردت: شربت كثيراً، ولكن يمكنك أن تشتري لي شوت فودكا

رد بالإيجاب: حجزت غرفة بفندق الزهور يمكننا أن نشتري بعض الشراب، ونشرب بغرفتي إن كان ذلك لا يزعجك يبدو أنها استحسنت الفكرة.

ابتسمت: فكرة جيدة.. هيا بنا لنترك هذا المكان، تحركا نحو... دكان صغير لبيع المشروبات، بدت مرهقة ضحكت ضحكة خفيفة، يمكننا أن نشرب، ثم نفعل الحب وننام. ردّ برأسه ... مستحسناً فكرتها، لكنه يريد أن يتأكد إن كانت لها مطالب

سألها: هل لك مطالب

ردت بحركة من رأسها بلا.

أسرع لشراء قنينة فودكا صغيرة وعلبة ريد بول، خرج مسرعاً، وهي بصحبته، خلال دقائق قليلة وصل فندقه، أخذ المفتاح، دعاها للدخول، دخلت غرفته الصغيرة، جلست على طرف السرير، أغلق النافذة، حدق فيها ليرى تفاصيل وجهها، وكأنه يريد أن يكتشف قصتها، فتح القنينة وقدم لها كأساً، سارعت لتخلع ملابسها، بدأ جسدها المثخن بجروح وحروق بعدة مواضع، اقترب ليلمس هذه الجروح، سألها عدة أسئلة.

حكت له جزءاً من قصتها فهي شابة من أصول مغربية، تركت أهلها لتعيش بالشارع.

تنهدت محاولة أن تبتسم: لا أريد تعكير ليلتك، فأنا فتاة شارع، ولا أحد سيسأل عني، فقدت حقيبتي، وبها أوراقي، ومبلغ من المال، لكن سوف أعوضه ببيع الكوك، تبدو لطيفاً، وعابر سبيل في هذا الشارع النجس. سوف أغتسل ونقضي ليلة لذيذة، كي ننام بسلام، وغداً أنصرف لحالي لا داعي أن تهتم بحكايتي، وسوف أحاول أن تكون ليلتنا ممتعة.

دخلت لتغتسل، دون غلق باب الحمام، كان شعرها وجسدها متسخاً. هو خلع بعض ملابسه ليظل بسروال وشورت قصير، مضى أكثر من نصف ساعة، خرجت تلف منشفة صغيرة سرعان ما تركتها لتظل عارية. أخذ المنشفة ولحق بها على السرير ليجفف شعرها، بدت مرهقة جداً، لم تشتعل الرغبة فيه بالرغم من كل هذه التفاصيل.

أكمل تنشيف شعرها، ارتمت بحضنه: هيا كما تحب أنا لك

قاطعها متعذراً: للأسف ليس لدي واقٍ..تبدين مرهقة، يمكننا أن نتحدث فقط هذه الليلة وغداً أشتري لك ملابس. على ملابسك بقع دم

ردت: كما تحب، تستطيع أن تخلع ملابسك أنت أيضاً.

خلع كل ملابسه، ارتمت بحضنه، ظل يداعب شعرها، لم تتحرك الشهوة بداخله، شعر أن الممارسة ستكون فعلاً قبيحاً،فهي لا تبدو بوعيها الكامل، حكت له جزءاً آخر من حكايتها، فقد دخلت السجن، ومصحة نفسية للعلاج من الإدمان. نامت وهي تحكي، علا شخيرها، ظل يلامس

جسـدها، ويحاول أن يوقف سـيلاً من الأسـئلة تتدفق في رأسه، يبدو أنها شعرت بالأمان التام، وليست محترفة للبغاء، فالعاهرات يطلبن المال أولاً وأخيراً. لا يدري كم من الوقت مر عليه قبل أن يغلبه هو الآخر النعاس.

اسـتيقظ قبـل الظهـيرة، كانت ماتـزال نائمة في حضنـه، نزعها برفق، ونهـض ليغسـل فمه، ثـم جلـس بجوارها يمسـح جسـدها اسـتيقظت بصعوبة.

ابتسم: علينا أن نترك الغرفة قبل الظهيرة ولدي بعض المواعيد.

سـألته: تريدني معـك لليلة أخرى، فنحن لم نفعل شـيئاً، وكنت لطيفاً معي ؟

نهضت ولبست ثيابها القذرة، بينما هو يكمل جمع أشيائه لترك الغرفة، غسلت وجهها سريعاً، ولم تطلب مليماً واحداً.

سألها: لم أعرف اسمك؟

ابتسـمت: لا يُهم ما قيمة الأسـماء إن كانت حياتنا تعيسـة..نادني فتاة المولون روج.

انتظارات

يرن في مسمعي صوتها البعيد الذي لن يأتي، أكتفي بأحلام اليقظة، أغترف منها ملامح وجهها، عندما تشتاق لقبلة، أو مداعبة خفيفة، ونحن في الحافلة الخاوية، تكره جلافتي الشرقية، عندما نكون بالخارج نادراً ما أذعن لهوسها الطفولي في القبلات، هذه الكاميرات بالحافلة لن تسجل هذه المداعبات كجنحة، هنا في زاوية يتبادل العشاق كل شيء، تهوى الفتيات أن يضعن أياديهن في الجيب الخلفي للعشيق مثلاً. أكون بالمنزل أكثر وقاحة... تأخذ بعض الوقت للصفح عن مثل هذه الخطايا..تصرخ: نحن عشاق ولسنا أزواجاً، عندما نكون بالخارج لا أستطيع أن أقبلك؟

أعرف كيف أجعلها تنسى، تمانع قليلاً بالبداية معتذرة أن عليها أن تأخذ حمامها، تذهب لتغتسل من مشاكسات يومها وأحلامها التي تخطو إلى الوراء. قد تبكي حظها من هذا العشق المجنون الذي يصعب أن يكون رسمياً على ورق.

كنت أفكر لماذا لا نتوقف إذن؟

مثل هذه الفكرة قد تقتلها، تصرخ لا وألف لا، أنت قدري.

هنا تعد نفسها، وتنثر ابتسامتها، كي أعود وقحاً، يفوح عطر الرغبة، ننسى كل شيء لنمارس بجنون المراهقين وكالعادة أسألها.. كيف؟

تبتسم لنعد الكرة مرة أخرى سبعة من عشرة فقط، نضحك..نعيد فعل الحب... تبتسم سعيدة ثمانية من عشرة، نعد العشاء، قناني الجعة.

تنهرني : لا تشرب كثيراً، لا تدخن كثير اً.

أسألها : وهل يؤثر في الدرجات؟

تجيب بحركة من رأسها، هكذا الليل، وقد أستعد له قبل وصولها بشرب منقوع الزنجبيل والقرفة، وشراء مكسرات والفواكه المجففة وبعض الأشياء المقوية للفحولة.

في الصباح تنهض، لتعد نفسها، ثم تعود للتزود بالطاقة ليوم جديد بالمتاعب والعراكات مع أمها التي تحضها أن تدع هذه المغامرة، تردد دوماً تكفيك كل هذه الشهور من اللذة واتركيه. ترفض أي نقاشات، وقد تعود منكسرة تطلب حضناً، وكثيراً ما تقول نفعلها كثيراً. أسألها كم مرة البارحة، واحدة؟

تضحك بغنج لا ثلاث مرات، وأشعر بكل مرة لها لذتها الخاصة.

أسألها، وأنا أعلم بالإجابة

ـ ماذا سنفعل الليلة؟

ترد بجدية وتعدد الطبخ، العشاء، شاي بالحليب ثم.. وكذلك..

أسألها: ثم ماذا؟

ترد بخجل: سنمارس يا حبيبي

– أحقاً أنا حبيبك؟

– مية بالمية، وحدك من يجعلني أضحك، وهذه الأسئلة تسألها كل ليلة وأنت تعلم الرد.

عندما تأتيها الموانع ككل النساء تفضل أن تبيت عند صديقة لها، في الصباح الباكر تأتي لحضن دافئ ، وتكون هناك أفعال أخرى يسمح بها الشرع. يمتلئ فمها بالماء الدافق، تتلذذه ساخناً طرياً على صدرها، تدهن به، تتذوق كل ما يمكن تذوقه من جغرافيا جسدي. لا شيء يوقف هذه الرغبات الملتهبة، والتي يزداد سعيرها المجنون كل لحظة. لا أحد منا يسأل وماذا بعد؟

هذه فقط بعض المشاهد الحية التي لا تشيب، كيف ولماذا خمدت تلك البراكين؟ أسألها

وهل تراودك أحلام كهذه التي تحول حياتي إلى شاعر؟ كأني أنتظرها أن تدق الباب بأي لحظة، وأعد نفسي لهذا المشهد الذي يبدو أن القدر حذفه من سيناريو أصبح هزيلاً، مملاً، يعج فقط بالانتظارات.

ليلة ساخنة في بيجال

كل شيء هنا يفوح بالجنس، محلات الملابس الجنسية الخاصة بالساديين وأدواتهم، وأدوات وأكسسوارات لجميع الميولات الجنسية. هنا أيضاً بعض العاهرات يعرضن أجسادهن مباشرة دون سماسرة، هنا باعة الكيف، والهواتف المسروقة، هنا يمكن شراء الشهوات والرغبات بالمال.

لم يفكر التوقف بالميترو رقم 2 في محطة بيجال، أو يتجول في هذا الشارع وأماكنه سيئة السمعة، وحدها الصدفة جعلته يكتشف هذا العالم، وتكون له قصة وذكرى معه، كان بوده النزول بمحطة ساحة إيطاليا، ليذهب إلى الفندق الرخيص الذي سيقيم فيه هذه الليلة، لم يتعود المبيت بباريس، ولا يتحمل صخبها، لكنه يضطر من حين إلى آخر للبقاء فيها للعمل.

شارع بيجال تفوح منه رائحة العاهرات من كل جنس ولون. القوادون والقوادات ومساعدوهم تراهم يقفون ويتأملون المارة، يبتسمون إذا شاهدوا ملامح وجه سائح، أو غريب، ثم يسارعون للحديث بلغة إنجليزية ركيكة ودعوته للفرجة المجانية بداخل الحانة أو الملهى وفي حال دخوله فإن خروجه لن يكون سهلاً، وقد تكلف المغامرة أو الفضول دفع مئة يورو على الأقل.

وجد نفسه في وسط هذا العالم،عليه أن يتصرف بشكل طبيعي، ولا يكثر الالتفات هنا وهناك، يوجد رصيف طويل في وسط الشارع وعلى ضفتيه تتناثر عشرات الملاهي والحانات الحمراء. قرر أن يشتري القليل من الكحول، ويجلس للمشاهدة بكونها خبرة حياتية، ومناسبة لرسم هذا الشارع الذي يعرفه من خلال حكايات وريبورتاجات شاهدها في التلفاز.

اشترى من دكانة عربية قنينة صغيرة من الفودكا، ثم صبها في قنينة عصير تفاح. رمى زجاجة الفودكا الفارغة، ثم أخذ رشفة صغيرة، هذا الجو المنعش مع بداية الليل يضيف للشارع رونقاً خاصاً، فتبدو كل زاوية كلوحة غريبة. كسب الخبرات الحياتية يحتاج إلى شجاعة ومغامرات، وجد نفسه في المكان والزمان الخطأ، وعليه أن يتعامل مع الصدفة كبطل درامي ، ويرى ماذا سيحدث.

جلس على أحد المقاعد الخشبية، فتح حقيبته، شرب جرعة فودكا، أشعل سيجارة، أخذ يدخنها، وهو يتأمل الأشجار التي بدت أغصانها ترقص متفاعلة مع نسمات الليل. ظل يحدق بأعمدة الضوء، يسترق من حين إلى آخر بعض النظرات لضفتي الشارع، الحركة تزداد سخونة وجاذبية، الناس من كل جنسٍ ونوع، بيجال أشبه بساحة كرنفالية لا تنام، لكن لليل مذاقه وألوانه المغريةً، هناك من يفضل المشي على هذا الرصيف، العاريات كثيرات، كلما شرب جرعة فودكا أحسّ أنه يرى المكان بشكل مختلف متجاهلاً التحذيرات التي سمعها وحفظها.

يبدو أن الخمر بدأ يلعب لعبته، استعد للنهوض، وفي رأسه فكرة التنزه، واستكشاف عمق هذا العالم دون التورط بحدثٍ أو مغامرة خطرة. الفرجة من بعيدٍ تختلف تماماً عن المشاركة، والتحول إلى عنصرٍ من المكان وأحد تفاصيله، فربما هنالك متفرج يرى، ويتأمل خطواتك من دون الآخرين.

بقي متفرجاً لأكثر من ساعة، وشاهد عيان على عدة أحداث سريعة بعضها لم يستغرق سوى ثوانٍ قليلة. شاهد عاهرة تجاوزت الخمسينات، وظن أنها في المكان الخطأ، وقد يعاكسها الحظ في صيد زبون، لكن بعد ظهورها على الرصيف بلحظات أشار إليها أحدهم، تحدث معها أقل من دقيقة، ويبدو أنهما اتفقا بسرعة، ثم لمحها تسير خلفه لتركب سيارته الفاخرة.

سأل نفسه مستغرباً الرجل يظهر أنه ميسور الحال.. لماذا كان خياره هذه العاهرة القبيحة؟

الناس أذواق والرزق مقسوم كان يسمع هذه العبارة، ويظنها خاصة بمجتمعه الشرقي الذي يؤمن أن الرزق مكتوب ومقسوم. هنا عاهرة شابة ومغربية، يبدو أنها مستقلة، وتبحث عن رزقها، ظل يراقبها، وهي تدور على الأرصفة، تبتسم، وتسلم على من يسير بجانبها، لكن لم يأبه بها أحد، وكأنها غير مرئية. ظن أنها صورة خلقها خياله. يبدو أنها شعرت بالتعب، كاد أن يسير ليمر من أمامها، لعلها تحدثه فقط ليتأكد أنها ليست تهيؤات. هنا كأنها قرأت أفكاره، حيث بادرت وخطت نحوه

عدة خطوات، يسبقها عطرها، تقترب منه، تجلس بجواره وهي تتحسس ظهرها العاري، أشعلت سيجارتها، نظرت إليه مبتسمة.

العاهرة: مرحباً أتبحث عن متعة؟

رد شاكراً : أشكرك .. لا أبحث عن شيء.

ضحكت ساخرة: كل واحد هنا يبحث عن صيد، المال أو الشهوة وبالمال تشتري الشهوة مهما كانت غريبة أو شاذة.

رد مستفسراً : أنتِ من سكان الحي؟

ضحكت، ثم صمتت للحظات.

أجابت : قادتني الصدفة إلى هنا، كنت مع صديقات بأحد الملاهي .. ليلتها جذبني شاب وسيم، ظننت أني سأقضي متعة عابرة.. أو مغامرة عاطفية تجعلني أشعر بمتعة الحياة..قادني إلى غرفته التي يسكنها لنكمل السهرة، ثم أغراني بمغامرة مجنونة، ومبلغ كبير من المال مقابل ساعة واحدة مع رجل لا أعرفه يريد ساعة واحدة، ليحقق رغباته السادية والشاذة، ومنذ تلك الليلة صرتُ بضاعة للمتعة.

تصمت، تخفض رأسها، تنزلق دمعات صغيرة من عينيها، تسرع بمسحها، تتنهد، تضحك، كأنها تسخر من نفسها أو قدرها البائس،.

ثم تكمل قصتها: كان الشاب لطيفاً وحنوناً .. مسح ألم سياط ذلك الشهواني، ولم يأخذ مليماً واحداً من مكسبي.. وهكذا أصبح يؤجرني، وأنا أكسب المال.. ثم انقلبت أحواله وأخذ المال..غير مرغوبة.. مدمنة وبائسة.. هكذا صار حالي الآن.

بعد لحظات ظهر صديقها، أحسّها ترتجف، نهضت خائفة.

ودعتـه بقولها : عليك الحذر، ذلك الوغد يبحث عني .. سيسـأل عن المال، أو سـيجرني لوحش ينهش لحمي ويدمي جسـدي بسياطه ورغباته المقززة.

تسـير نحو ذلك الشـاب، يمسـكها من ذراعهـا، ويدفعهـا بالقوة إلى سـيارة تنتظرهما. لمحتهم النظـرات، وراقبتهم الأعين لكـن لم يتحرك أي شخص لمساعدتها. فهم أن لهذا العالم قانونه الخاص.

شاهد عدة أحداث أخرى لصقت في ذهنه. شاهد رجلاً في الأربعينات بملبـس أنيـق تحدث مع شـاب أفريقـي طويـل، ومفتـول العضلات ثم اصطحبه معه.

في تلك اللحظة جلس بالجانب المقابل شـاب يرتدي ملابس نسـائية، ظل الشاب يحاول لفت نظره، ثم نهض ليعرض بضاعته

هامسـاً : أنت أيها الشـاب.. أتبحـث عن اللذة..يمكنني أن أسـعدك لسـاعة، أو ليلة وبسـعرٍ مخفض.. سـأفعل ما تفعله العاهـرات وأكثر، إن كنت من هواة المؤخرات.

شـكره، ثم نهض. أحسّ بنفسـه يفر من مجرد عرض كهذا. كل زاوية مشـحونة بالفرجة، كل مترٍ عبارة عن مـسرحٍ لحكايةٍ ما بكامل عناصرها الدرامية.

عندما مشى قرب مواخير الدعارة أحسّ بروائح العاهرات، وأخرى نتنـة لسـماسرة وقوادين. رائحـة الزبائـن والأوراق النقديـة والخمـور

والمخـدرات فالروائـح إحدى عنـاصر هذه الأمكنـة.. كذلك الأصوات والضحكات المغرية والموسـيقا. هنـا اللغات واللهجـات المختلفة، لكن الكلمات والعبارات موجزة، وربما هذا المكان يتفاهم فيه الناس بسـهولة، ويقـرأ بعضهـم بعضـاً بملامـح الوجـه، حيث تكشـف الوجـوه أسرار الرغبات وما تخفيه النفوس.

ظل يمشي وفي رأسـه تدور التسـاؤلات. أهي النشأة الدينية التي تربى عليها جعلته يفر من ذلك الإغراء؟ إنه يترحم لحال تلك الفتاة المستعبدة، ولا يفهم كيف وقعت في فخ العبودية ببلد التحرر والقانون؟

يتوقف أمام حانة، تدور في رأسه فكرة مغامرة مجنونة، ليكتشف عمق هـذا العالم. يدخل الحانة، يطلب كأس فودكا، ينـزوي ليتفرج، تأتيه عدة بنـات يغرينه بمسـاج، وعرض إيروتيكي خاص، يعتـذر ويظل متفرجاً، رغـم أن الوضع الاقتصـادي يزداد قسـوة وتعقيداً، إلا أن سـوق الجنس يظل مزدهراً.

رأى أحدهـم يدفع مبلغاً كبـيراً ليقضي متعة غريبة في مقصورة خاصة مع دمية تشبه ممثلة إباحية مشهورة. المشهد يزج به إلى عالم فردريك فلليني بصخبه وجنونه. ها هم يزفون للرجل هذه الدمية، أكثر من سـبع فتيات شـبه عاريـات يحملن الدمية ويرقصـن حولها ومعهن الشـموع والورود والطبول.

لم يصدق ما يراه، اقتربت منه شـابة يبدو أنها من العاملات المشرفات، جلست بجواره، لتحدثه.

الشـابة: أرأيت ذلك الرجل دفع المئات، ليقضي ساعة متعة مع الدمية التي تشـبه نجمة سكس مشـهورة؟ هنا نحقق للناس أحلامهم ونجعلها حقيقـة.. ألا تعجبـك فتياتنا هنا؟ ألك ميولات مختلفة؟ لا تخجل سـوف نساعدك بالسعر لتكون زبوناً عندنا.

شرب القطرة الأخيرة من الكأس.

رد شاكراً: أشكرك جئت لشرب كأس صغيرة، ولا أحتاج لخدماتكم.

هنا وقفت الشـابة غاضبة، وصرخت تطلب الحراسـة. لم يفهم سـبب غضبها، هرع الحراس لجره، ورميه خارج الحانة.

بعـد خطوات مـن تلك الحانة، توقـف للحظات لا يـدري أي طريق سيسلكه، وماذا سيحدث له؟

أحـسّ بـأن أحدهم يضع يـده على كتفه مـن الخلف، اسـتدار بسرعة ليجـد شـاباً يمد له يـده ليصافحـه، ثم يجره بلطـف بعيداً عـن الضجيج ومسار المارة.

عرفـه على نفسـه قائلاً: اسـمي مـراد أنا عربي مثلـك، وفي خدمتك.. لـدي هرويـن وكـوك وأفيون وحشـيش، وكل الـذي تريده.. لـو لديك صديقة خذ سنة الأفيونه هذه ..ستجعلك أقوى من الحصان الجامح عند الممارسة الجنسية.

شـكره، حـاول التخلـص من هـذا الموقف، لكـن مـراد أصر عليه أن يتناول سـنة صغيرة من الأفيون. كان يظن أن تناول هذه الجرعة الصغيرة جداً ستقلب حاله، لكن لم يكن لها أي تأثير .

أشعل مراد سيجارة حشيش وتقاسما تدخينها.

لم يعد خائفاً من مراد الذي بدا لطيفاً، وبدأ يتحدث وكأنه يؤدي مونولوجاً غريباً.

مراد: لا تخاف خويه أنا عوربي مثلك، ما تخافش والله خويه أنا طالب الله.. هنا كله خطر، هذا شارع بيجال للمتعة والحرام، أنا أبيع مخدرات لكني مسلم ومؤمن وأحب أسامة بن لادن والظواهري.. هذول شيوخ يحاربون الكفار .

أنا أبيع المخدرات علشان نفسد شبابهم، ونأخذ بناتهم لو تحب عندي لك بنت فرنسية حارة تمتعك الليل كله، وأدفع الذي تحبه.. المهم تريح بالك.. هنا كلاب، ويوجد قحاب مريضات .. أنا عندي صغيرات وطازجات.. البلد هذه ضيعت ناس كثيرة ..عنصرية ويسرقوا ثروات بلادنا.. أنا فقط أجمع المال، وراجع نعيش ببلادي.. يا خوي بلادنا جميلة.. آه لو ما فيها السراق كانت بلادنا أحسن بلاد.

ظل متسمراً، وهو يسمع هذا الخطاب، وما يحمله من تناقضات، واستنتج أن لا فائدة من الدخول معه في نقاش عقيم، لذا عليه التخلص من هذا الموقف.

شكره على هديته ونصائحه وودعه

قائلاً : أشكرك لدي عمل سأذهب.

ثم مضى خطوات سريعة، بينما ظل مراد في مكانه لتدخين سيجارة أخرى.

أحـسّ بالصـداع، وظل شريط تلك المشـاهد يركض في رأسـه، وجد نفسـه يدخـل إلى مقهـى يبدو مخصصـاً للطلبة، أخـذ فنجاناً مـن القهوة، ثـم جلـس بزاوية هادئة. مرت لحظـات، ظل يتأمل المـكان وأجواءه التي يألفهـا، فهنا لا عهر ولا مناظر مريبة، اقتربت منه فتاة شـابة وجميلة، تبدو ثملة، سلمت عليه وجلست بقربه.

الشابة: مرحبا أنا حسناء.. أنت عربي، أليس كذلك؟

ابتسـم لهـا مرحبـاً. مالت إليـه ملتصقة بـه، ضحكت، أحـسّ بدفء ذراعها العاري، وضعت رأسها على كتفه.

ضحكـت قائلـة : أعـرف مكاناً جميـلاً ورومانسـياً .. تعـال لمرافقتي سنقضي وقتاً ممتعاً، لا تقلق هو ليس وكر دعارة وسعره جيد.

أخـذت يـده، انسـاق لرغباتهـا، لم يكـن المكان بعيـداً، مـع وصولهما، جلسـا بركن هـادئ. لم يكن هناك الكثـير من الزبائن، أخـذ مشروباً لهما. كان السـعر عادياً، جلسـت على حجره، بحثت عن شـفتيه، كشـفت عن صدرها، تفاعل معها، نهضت لترقص له عارية الصدر.. كأنه مع حسناء مـن ألف ليلة وليلـة تلك القصص الماجنة والمشـاهد المثـيرة كانت تفجر الرغبـة عنـده، ولم يكن أمامه سـوى كفه والصابون. لم يفهم لماذا تشـتعل تلك الذكريات وقصص ألف ليلة وليلة.

تمادت حسناء، تفجرت براكين الرغبة، ظلت تعبث بجغرافيا صدره، وأشـيائه الذكوريـة. فتحـت أزرار بنطلونه، أمسـكت ب.. بدت فرحة،

طلبـت منه أن يلحـق بها إلى ركن بالـدور الأرضي، تعـرت، انحنت على طاولة، أعطته واقياً جنسياً، وضعه، التصق بها من الخلف.

دفعته صارخة : لا أرجوك ليس في الدبر.. لقد آلمتني..

لم يكـن ينـوي فعـل ذلـك، أصلـح خطـأه.. شـهقت، بعـد فراغهما، انشـغل ليصلح سروالـه، ثم التفت فلـم يجدها، لعلها ذهبـت إلى الحمام، عـاد لمكانه، ظل ينتظرها، لم تأت، ظل للحظـات يراجع ما حدث له هذه الليلـة. تدفقت الصور لتلـك الوجوه التي صادفها، ثم فلاشـات سريعة لوجه حسـناء خلال مشهد الممارسة معه، سأل النادلة عنها، ظهرت عليها ملامح التعجب.

ردت بقولها: أنت تسـأل عن حسـناء.. أفعلتها معـك ثم اختفت؟ لا نفهـم متـى تظهر وتتبخـر هذه الفتاة..هـي كالزئبـق ، أو الجنية لا تكلف نفسك بالبحث عنها لن تجدها.. أنت أكثرت من الشرب من الأفضل أن تعود إلى بيتك.. هذا الشـارع خطير عليك الحذر.. سـأطلب لك تكسي. خروجك في هذه الحالة خطر.. أنت في شارع بيجال ليس كمثله شيء.

العاهرة

غمزت لـه بعينها، تظاهر أنه يتحدث في الهاتف خلال سـيره نحوها، توقف بقربها، خطت نحوه. هو لا يحب هذا المكان قرب محطة القطارات، هنـا كائنات من نوع آخر، من عالم مشـحون بالعنـف والبؤس. هي تبدو مختلفة، ناعمة ومغرية، تبسمت منتظرة تحيته، تشجع لتحيتها.

ابتسـم لها : مسـاء الخير، أنت وحدك، أم تنتظرين أحـداً؟ أيمكننا أن نتحدث قليلاً؟

ردت: مرحباً، أنا وحدي، وليس لدي ما أعمله.. الليلة هادئة رغم أن الطقس جميل.. نعم يمكننا أن نتحدث، ونتنزه معاً.

عرض عليها الذهاب معه إلى حانة بعيداً من هنا.

لم تمانع، في الطريق أخبرته أنها عاهرة، وخصوصاً نهاية الشهر.

بدت خجولة عندما قالت : أنا عاهرة، وأنت؟

توقف معتذراً، وكأنه غير مصدق.

قال : عفواً ماذا قلت؟

ضحكـت مؤكدة عبارتها: نعم أنا عاهـرة خصوصاً في النصف الثاني من الشـهر..ليس لدي إلا بعض المسـاعدات، لذلك أخرج إلى الشـارع، لتقديم خدماتي .

اعتـذر لهـا بأنه ليس الزبون المناسـب، ثـم شرح بقولـه : أرفض اللذة

مقابل المال، نعم للذة مقابل لذة، شراء المتعة بالنسبة لي قمة القبح.. جسد المرأة مقدس ..يصعب علي أن أفهم كيف يمكن أن تكون ممارسة مدفوعة الثمن؟

أبدت إعجابها به وبكلامه.

ردت بقولها: الدعارة أقدم مهنة في التاريخ.. كلامك طيب، لكن الكلام لن يمنحني المال لشراء الكيف الذي أحتاجه، ولن يشتري هدايا لأطفالي الذين يعيشون لدى عائلات بديلة كفلتهم بأمر المحكمة لعدم أهليتي كأم.

عرف أنها مطلقة، وطليقها هو الآخر في الشارع، كونه مدمن كحول. هي تخافه، وتنتظر من الحياة الأسوأ، فربما تكون نهايتها بسبب جرعة هروين فاسدة، أو طعنة في الظهر من يد طليقها المتشرد.

أحسّ بالخوف، أخبرها أنه كاتب. مالت نحوه مترجية أن يكتب قصتها، لأنها تحوي تراجيديا محزنة.

قالت: أنا ولدت شبه يتيمة، أتذكر أن أبي كان يضرب أمي ويهينها.. الآن لا أعرف تفاصيل وجهه، ولم أحسّ به كأب، حتى لقبي منحته لي سيدة تكفلت بي، لكنها ماتت، نقلوني إلى دار الرعاية الاجتماعية. عندما بلغت الخامسة عشرة خرجت إلى الشارع، وتعرفت على أب أطفالي. كان هو الآخر في الشارع، ومهاجراً غير شرعي، طلبت منه أن يجعلني أحبل، كي أخرج من الدار، وأحصل على سكن ومساعدات، وهو سيحصل على الوثائق، وفعلاً فعلناها، كنت بين فترة وأخرى أخرج إلى الشارع

كان يأخـذ المـال ويضربني ، لذلك تركته بعـد أن نفد صبري، لا أريد أن أكون نسخة من أمي.

أعجبته الفكرة، كان يستمع إليها، ويرى أمامه المشاهد الدرامية حية، حاول التغلب على مخاوفه، قبلت أن تقضي معه ساعات الليل في الشارع، دون أن تشترط المقابل المادي.

في الحانـة بـدت مضطربـة، فهـي مـن عشـاق الحشـيش، وكل أنواع المخدرات، لكنها لا تستلذ الخمر، ولا الأماكن التي يكون فيها الناس.

طلبـت منـه الخـروج مـن الحانة، هـي تعـرف مكانـاً هادئاً بوسـعهما التدخين، والحديث، ولن تمنعه من مداعبات جريئة.

فور وصولهما المكان أشـعلت لفافة الحشـيش، شاركها قليلاً، أخذت يده أكثر من مرة إلى مواضع ساخنة من جسدها. هذا الجسد لم يفهمه، أو يقدسـه أحد. طالبو المتعة يكتفون بتفريغ شـهوتهم فيه، يأمرونها أن تفعل ما يريدونه، يأخذون مآربهم، ثم يتركونها في الشارع حيث وجدوها.

الشـوارع وطنها، تقدسـها، لديها غرفة بائسة تعود إليها لتنام ساعات قليلة، ثم تعود إلى الشـارع. تحدثت عن الوضع المعيشي الصعب للناس، شاب حديثها نبرة قلق.

لكنهـا تضحك بسـخرية ، قالـت: لم تعد الناس كـما كانت تملك المال وتنفقـه في الملـذات، قليلون هـم الذين يحترمون العاهـرات هنا، ويوفون بوعودهم عندما يحتاجون إليهن، ويفي بوعده عندما يحتاج إليهن، حدثت مصائـب كثـيرة لزميلاتي . . أصبحـت أتمعن، وأتفحـص الزبون، أفضل

الزبون الطيب، ولا أهتم كثيراً بالسعر. هناك من يقبل منا بالقليل.. المهم أن تعود الواحدة سالمة.

رغم كل المخاطر تظل مستسلمة لقدرها، لا يبدو عليها لؤم العاهرات، وشبقهن المادي، عيناها تخفي أسراراً كثيرة، من حين إلى آخر تُخفض رأسها، ثم ترفعه، تعض على طرف شفتيها، تبللها باللعاب، تحدق في طرف سقف السماء للحظة، تظنها كمن يؤدي طقساً تعبدياً، لم تجرب أن تنادي الله، أو تعاتبه، ولم تحقد عليه. حكت له كل هذا، تخلل حديثها ضحكات ساخرة، ولحظات صمت أحسّها كمن يضيع من زمانه، أو أنه مع شخصية أفلتت من تراجيديا يونانية قديمة.

ميلاني .. تختلف عن بقية بنات الليل، هو لم يجرب أن يتحدث لواحدة، ذات مرة دعته واحدة تعرض خدماتها، لكنه رفض، وهرب كطفلٍ مذنبٍ يخاف أن يراه الناس.

مرت الساعات سريعة، عليه العودة إلى بيته.

تبسمت متفهمة: يمكنك أن تذهب لبيتك، لن أسألك عن حالتك الاجتماعية..أعدك ألا أقترب منك لو رأيتك مع زوجتك أو رفيقتك، أنا أحترم زبائني، ومنهم من له عائلة أو رفيقة.. أنا أجلب السعادة لهم، وليس المشاكل.

سألها : ألا تفكرين بترك هذه المهنة الخطيرة؟ ألا ترغبين بأن يكون لكِ صديق، أو عشيق؟

ضحكت، صمتت للحظات، تغيرت ملامح وجهها، ظللتها غيمة

من الحزن، تنهدت، ظل يتأمل هذه التغييرات، للحظة تذكر تلك العاهرة في «الجريمة والعقاب» رائعة دوستويفسكي، سونيا قادها قدرها أن تكون جسد عاهرة، وصاحبة روح قديسة في نفس الوقت. ميلاني ربما تعيش في زمن مختلف عن تلك الحقبة التي عاشتها سونيا، لكن ثمة تشابهات. ظل يحاول أن يبحث عنها، ميلاني أيضاً تتسامح مع الجميع لا تبدو حاقدة على أبيها السكير والمقامر، ولا على أمها التي ماتت في حادثة، لم تبد حقدها ضد المجتمع، ولا القانون، ولا زبائنها.

عادت ميلاني، لتبتسم، وردت على سؤاله.

هي: أنا لا أعمل أفعالاً شريرة، ولا أدري إن كنت تراني ساقطة ومذنبة، أنا أسعد العشرات من عملائي.

أشعلت لفافة من الحشيش، أخذت عدة أنفاس، ثم ناولته ليأخذ نفساً، ثم أعادها، لها، أكملت التدخين، رفعت طرف فستانها، أخذت يده وضعتها بين فخذيها، تبسمت ثم أكملت ردها.

هي: يأتي الكثير من الزبائن، وهم يشعرون بالملل من الحياة، أو حياتهم العائلية، أو يريدون كسب مهارات جنسية، ومنهم من يكون في رأسه فانتازيا جنسية، أو كبت أو لمجرد قضاء ساعة مرحة، وأحياناً مجرد صدفة.. أنا أحقق لهم كل هذا.. يأخذون ما يحبون، أنفذ رغباتهم الغريبة أحياناً.. أستمع لحكاياتهم ويضعون أسرارهم في صندوق أسود.. ألا ترى أني أخدم المجتمع.

هنا لا يدري كيف وصلت يده إلى ما تحت سروالها، أحسّ بسخونة

المنطقة، سمح لها أن تمد يدها، لتعبث بأشيائه الذكورية، أمسكت بذلك الذي وقف لمصافحتها.

نظرت إليه، ما يمنعه أن يكون أكثر لطفاً هو صفة عاهرة، أو أنه لا يقبل أن يدفع ثمن لذة عابرة، سحب يده بهدوء ثم أبعد يدها بلطف.

سألته: لو تحب توجد زاوية قريبة هناك عند موقف السيارات لذلك الفندق، وهي مكان مناسب لفعل ما تحب سأهتم بك لا تقلق.. لا أريد أي مقابل، يكفي أنك ستكتب قصتي.

قاطعها مبتسماً، رد متلعثماً : أنتِ جميلة ومغرية. لكن هذه الطريقة والمكان والزمان.. لماذا لا ؟ في وقت آخر، أظن أن الوقت متأخر الآن، ويجب أن أعود للبيت قبل أن تفوتني الحافلة الأخيرة .. أيمكننا أن نلتقي غداً؟

ابتسمت قائل: ستجدني بالشارع لا أستطيع أن أعدك، أو أضمن حياتي إلى الغد، ربما يقتلني طليقي، أو زبون مريض نفسياً، أو إحدى زميلاتي. هن والقواد ينتقدونني، لأني أقبل بأي سعر، وأخالف قوانين المهنة... كثيرة هي الكوابيس التي تراودني ، أرى فيها موتي قبيحاً، هو قدري أنتظره، ولا أفر منه، ولذلك أحتاج إلى المخدرات، تمنحني لحظات غياب، وأحلاماً جميلة وكاذبة.

رافقته إلى موقف الحافلات، وظلت مسافة قصيرة تفصلهما خلال مسيرهما.

وصل الحافلة، أسرع بالصعود، تغيرت أحوال الطقس، السماء

تسكب ماءها قطرة قطرة، لمح أحدهم بطرف الشارع يشير إليها، ارتسمت على وجهها ابتسامة مغرية، توجهت نحوه بخطوات هادئة.

في اليوم التالي بحث عنها في الشوارع، لم يجدها، لم يعرف اسمها، دخل إلى إحدى الحانات، جلس بزاوية هادئة، كانت الجريدة المحلية على الطاولة، أمسكها بيده، تصفحها، في الصفحة ما قبل الأخيرة، وقع بصره على صورتها، في مربع صغير وبخط صغير قرأ (الضحية عاهرة .التفاصيل قريباً)، أحسّ بالصدمة، ظلت يده ترتعش، وهو يحاول أن يجد، ويكتب عنواناً لقصتها.

لا شيء في مكانه هنا!

يعلـق الليـل معطفه الأخضر على مشـجبي، يسـتعير معطفـي باهت الألوان، يسـير على الأرصفة، يتجه إلى الحانة، في تلك اللحظة كنت أقف متسمراً أتأمل ظل منفضة السجائر يبدو في غير مكانه، ويلهو مع موجات الضـوء، رغـم ضجيج توافد قطـرات الندى وفـوضى الصمت. في هذه اللحظة يأتي صوت ما من تحت المنضدة.. لا ربما من خزانة الملابس يشبه قهقهات دخان سـيجارة عشـيقتي التـي تركتها قبل لحظـات، لا بل قبل سـنوات.. لكـن لماذا عقارب السـاعة هـي الأخرى غـادرت، لا شيء في مكانه هنا!

حالة

يرتعش كأس الماء الموضوع على الطاولة الصغيرة قرب سريرها، تتوقف عقارب الساعة عند الثالثة وثلاث دقائق وثلاث ثوانٍ صباحاً. يتسلل ضوء صامت، يسير بخطوات هادئة، ليلامس وجهها، تنهض مفزوعة، تركضُ أنفاسها، نظراتها مشتتة، لا تقوى على الصراخ، ينحت الفزع على وجهها تقاسيم يصعب رسمه، تحاول التماسك والسيطرة على رعشة جسدها، تنجح بصعوبة برفع رأسها، ثم رفع نصف جسدها العلوي شبه العاري.

تمد يدها إلى الكأس، تتمكن منه، هو في يدها الآن، ترفعه، تأخذ رشفة واحدة، ينسكب بعض الماء على صدرها، تشعر ببعض الراحة، تتمكن من قيادة جسدها، تظل محتفظة بالكأس، تتمكن من النهوض، ومغادرة السرير.

شميز النوم القصير الأبيض لا يمنع هذا الجسد الصارخ بأنوثة ساحرة من التحرك.

تسير خطوات حذرة، تقف أمام الحائط، تظل متسمرة. للحظات، تقترب أكثر، يلتصق وجهها بالحائط، تهذي بصوت خافت وغير مفهوم،

تتحـرك، تضـع أذنها لتسـمع صوتـاً ما، يهتز جسـدها الملتصـق بالحائط، شـهيق .. زفـير، تهبـط لتجلـس، تحـرك رأسـها، تتغـير ملامـح وجهها، لتعكـس شـعوراً باللذة، ترفع الـكأس إلى فمها، تشرب بقية الماء، تمسـح شفتها السفلى بطرف شميزها.. تبتسم.

طقوس

يتأمل غصن الشجرة المرتعش، يسحب نفساً من سيجارته، يحبسه لثوانٍ، ثم يطلقه في الفضاء. يقف أمام نافذته التي تطل على هذه الشجرة العجوز. هذا الفعل الصباحي بمثابة طقس شبه مقدس وصلاة خاصة.

لم يغسل وجهه، أو يمشط شعره، بيده فنجان قهوته، وفي الأخرى سيجارته، تتراكم حوله وأمامه كتلات من الصمت، يكمل هذه الشعائر. الآن يُحسّ بالبرد، يغمس جسد عقب سيجارته، يلقي نظرة أخيرة للغصن، يُغلق النافذة، هنا تسرع نحلة مجهولة الهوية نحو النافذة، تصطدم بها، وشوشة ما لا يفهمها، يظل متسمراً للحظات، تحوم النحلة بالضفة الأخرى، تتراجع للخلف، ثم تعود تكرر نفس الفعل، يحس أنها تحمل له رسالة ما، يتأمل فعلها، ومحاولاتها الدخول، يقرر فتح النافذة، يدها على المقبض.. النافذة مفتوحة الآن.. النحلة تتراجع إلى الخلف، تحوم، تسارع إلى الفضاء تاركة المشهد.

جزيرة الذهب

يتعالى بكاء رضيعة بنت الجيران، يتحول إلى صراخ، أصوات وضجيج وفوضى تأتي من حركة نزول وصعود مرتبك على السلالم. عادة تنشط الحركة مثل هذه الساعة مع عودة الأطفال من المدارس أي عند الرابعة والنصف مساء. حركة اليوم تبدو أكثر نشاطاً، ترتفع وتيرتها بشكلٍ متسارعٍ، يجلس على كنبة قديمة، ويذهب في غفوة قادته إلى حلم لم يفهمه، حيث وجد نفسه يركض وراء عشيقته في غابة جرداء، وعندما يتمكن من اللحاق بها تدفعه بقوة، ليجد نفسه في عمق بئر مظلم.

تخلص من هذا الكابوس بنهوضه، يتجه إلى المطبخ لتحضير قهوة، لعلها تساعده في التخلص من بعض الصداع، نومة العصرية لا خير فيها كما يقولون «نوم العصر جنون»، يفتح نافذة المطبخ، ثمة أشياء غير عادية تحدث، يتطلع لمشاهدة ما يحدث، أصوات سيارات إسعاف، وسيارات شرطة يمكن سماعها بوضوح لعلها ستتجه إلى هنا.

هنا حي شبه شعبي، يسمونه الجزيرة، أو جزيرة الذهب، كون الحي المكون من تسع عمارات يشبه الجزيرة، وتفصله أشياء عن بقية الأحياء، من الشرق المقبرة القديمة، من الغرب حديقة مهجورة ومهملة، سبق أن وعدت البلدية بتطويرها، ولكن تكثر حولها الخرافات، لا أحد يفهم سبب تعثر أكثر من مشروع لتطويرها، من الشمال مشروع وحدات سكنية

ومركز تجاري وآخر رياضي، لكن المشروع تعثر أيضاً منذ سنوات، ولا توجد معلومات منطقية عن أسباب هذا التعطل، من الجنوب ساحة كبيرة مخصصة للعب أطفال الحي يخترقها الطريق الذي يقود إلى محطة توقف الحافلات، أي هو المنفذ والشريان الوحيد للدخول والخروج.

لحسن حظه شرفة مسكنه المتواضع بالطابق الرابع والأخير يطل على الجنوب، يعجبه تناول الشاي أو القهوة بالشرفة، يُسرع بأخذ فنجانه متجهاً إلى الشرفة، لعله يتمكن من مشاهدة الأحداث حية، هنا تحدث بعض العراكات، أو المشاكل الأسرية، ونادراً ما تأتي الشرطة لحلها. منذ ثلاث سنوات حصل على هذا المسكن، ولا تربطه علاقات قوية مع سكان الحي ، فهو يظل في نظرهم الغريب، وهم لا يحبون الغرباء. لديه صديقة تأتي لزيارته، وتقضي معه بعض الليالي، وعطلات نهاية الأسبوع. لم تشعر بالاطمئنان لهذا الحي، وتتوهم أنه ربما يخونها مع بعض فتيات ونساء الحي، حيث ترتفع نسبة المطلقات والأمهات العازبات. هو فكر بترك الحي، وتقديم طلب سكن بمكان آخر،لكنه لم يرسل الملف، فلا يزال قابعا في درج مكتبه منذ أكثر من سنة.

لا يصدق هذه الحكايات عن الحي، ولا يأبه بها عكس رفيقته التي تخاف العودة ليلاً، فيضطر لانتظارها عند محطة توقف الحافلة، ثم يصطحبها للبيت، لعل خوفها مما يقال عن هذه الجزيرة جعلها تحتفظ بمسكنها الخاص بحي بعيد، وتأتي لقضاء بعض الليالي عنده. ذات مرة قالت له:

ــ لسنا كبقية الناس.. لا أفهم وضعي معك، بيننا معاشرة جنسية، ولكن عليك ترك هذا المكان، لننعم بحياة هادئة وطبيعية.

كان يرد عليها دائماً

ــ تعلمين عشقي لك، ولا أفهم مشكلتك مع هذا المكان، هو كغيره، وكذلك رخيص يتناسب مع دخلي، دعك من الخرافات.

في الليالي التي تنام معه تظل ملتصقة به طوال الليل.. عندما ينهض، ولو للحظات، ويغادر السرير تنهض مفزوعة وخائفة، يسارع ليحتضنها بلطفٍ وتهدئتها، وينتهي المشهد بممارسة الجنس، لياليه معها مفعمة باللذة، فقد يصل بهم الحال للممارسة ثلاث مرات.

سألته ذات مرة إن كان لهذا المكان علاقة بقوة الباءة الجنسية؟ هي أيضاً تُحسّ بالرغبة غير العادية للجنس، كلما وصلت هنا، لم يستطع الرد ولا يملك تفسيراً لهذا. هو ليس من الأشخاص الذين يستخدمون المراهم والوصفات، لم يشعر معها بحاجته لوصفات أو عقاقير، معها المعاشرة قد تطول ولعدة مرات.. لا يجد نفسه مرهقاً، كذلك هي رغم كراهيتها للحي وأهله إلا أنها تجد نفسها منقادة إلى هنا، حالما تصل، وتدخل تتناسى معالم الحي ، وما يقال عنه، تقودها اللذة، لا تبالي بما يقال خلف ظهرها من بعض صديقاتها عن علاقتها هذه مع شخص غريب قد يترك هذا البلد بعد نهاية دراسته، قررت أن تترك كل الأسئلة وتستمتع بكل لحظة معه. هو أيضاً يجد نفسه يتعلم تقنيات جنسية، ويكتسب خبرات جديدة معها.

يشعل سيجارته، ينفث الدخان إلى الأسفل، يوزع نظرات مرتبكة

مـن شرفتـه، تصل أول عربة إسـعاف تليها عربة إطفـاء، لا يوجد حريق بالمنطقـة، بالسـاحة مجموعة متجمهـرة، ظنها عركة، أو ربـما مظاهرة، أو تجمعـاً حـول مهرج، خـلال هـذه اللحظات يتعـالى الـصراخ، في العمارة المجاورة التي تتألف من عشرة طوابق، في الطابق الأخير!

هنالك شجار بين شاب وفتاة... فجأة يسقط الشاب، تصرخ صديقته، يُسرع بعض المسـعفين نحو الجثة، ثم في العمارة المقابلة لها ثمة شـجارات قويـة، ثم سـقوط آخـر لفتـاة، يتدفـق مجموعة من الشـباب والشـابات، يحرقون سيارة الشرطة، تعم الفوضى، تصل عشرات من عربات الإطفاء والنجدة والإسـعاف، يبدو أن هناك فرقة مكافحة الشـغب، قنابل مسيلة للدموع يُغطي دخانها، ويكاد يحجب الرؤية.

هنا يظهر جاره من الشرفة المجاورة، يحمل بيده قنينة جعة، يحييه قائلاً

ـ يبـدو أن الخرافـات حـول الحـي حقيقيـة. مـا معنى تسـمية الحديقة المجـاورة بحديقـة السـاحرات والمقـبرة مقـبرة المهرجـين ..(يصمـت للحظات) أتعرف ما يحدث الآن؟

يتابع الرجل حديثه

ـ عـراك يصـل إلى حد القتل بـين الأزواج وزوجاتهـم، أو الرجال مع رفيقاتهـم، حالات طعن ورمي مـن الشرفات.. يقـول التلفاز المحلي: إن الحـالات وصلت إلى حد يصعـب حصرها، هناك من يقـول لعنة ما تحل بنـا.. كنا نظن أننا سـعداء نمتلك قوة الباءة، ونـمارس الحب مع رفيقاتنا لنسعدهن.. فجأة ها نحن نعيش همجية وحشية يصعب تفسيرها.

يأخذ جرعة من قنينة، يظل هو مستمعاً، يواصل الجار تحليلاته.

ـ أظن أنه فيروس، هم يظنون أيضاً.. ربما فيروس زومبي .. لا أدري.. أنا لي رفيقات وعدة شريكات بالجنس ، وأخاف أن أجد نفسي ثوراً مذبوحاً تنهشه الخناجر (يضحك، ينظر إلى جسده) هههه سأغلق بابي، ولن أفتح لواحدة حتى تنجلي الغمة.

هنا يُسمع صوت طلقات نارية، بينما الجار المتحدث يتراجع إلى الوراء، فجأة رصاصة لم ينتبه لمصدرها تبعثر رأسه.

يتراجع الغريب، يغلق باب الشرفة، هنا يرن هاتفه المحمول، يُسرع للرد يسمع صوت عشيقته.

رغم الضجيج الصاخب يستطيع سماع صوتها، ولا تترك له مجالاً للرد

ـ حبيبي أعلم أنك في البيت.. لا تخرج لقد فرضوا طوقاً أمنياً، ويمنعون الدخول أو الخروج، لكنني تمكنت من دخول الحي، ولا أعرف كم من الوقت أحتاجه للوصول إليك.

هنا ينقطع الخط، هي قادمة ونبرة كلامها مختلف، أم أنه خائف ومتوتر. يتعالى الضجيج، يخترق الجدران والأبواب، يصعب وصف هذا المناخ.. كأنه يعيش ساعة القيامة، هنا يسارع ودون تفكير، ليغلق النوافذ وباب السكن، يضع قطع الأثاث، ليسد مدخل الباب، يجلس على حصيرة مهترئة، يسمع صوت جرس الباب، يسد أذنيه، يعصب شالاً على عينيه، يسند ظهره إلى الجدار، يظل يسمع صراخ الطفلة الرضيعة، ويميزه رغم هذا الصخب.

ثقوب

ينفـث دخـان سـيجارته إلى الأعلى محاولاً سـدَّ ثقب في جنـاح غيمة، يراهـا، يتأملهـا، مع كل سـيجارة ينفـث كتلـة هوائية ثقيلة مـن صدره. في الهزيـع الأخير من الليل إلى ما قبل تباشـير الفجـر، يلتحف الصمت، يستمع لوشوشـة الظلمة. قليلة هي الأصوات والأضواء المحيطة حوله. حاول مرات أن يمسك بكفه على وهج العتمة، أو قطعة من السكون.

يعـود إلى مقعده، الأشـياء لا تبدو في مكانها، فنجـان قهوته الصباحية عـلى الطاولـة إلى يمينه أوراق لحكايـة لم تنته على مقربة منه، وجه عشـيقة غائبـة لم تـترك صورة تذكارية، لكنـه يكاد يملأ الفضـاء، صوت قطرات تعوَّدهـا، لكنها تربكه أحياناً، قطرات ربـما مصدرها حنفية المطبخ، وربما ذلك المطر يصب من الثقوب السماوية.

يمم وجهه ناحية باب الخروج، حركة ما تحدث خلف الباب، يقشـعرُ جسده، يقف شعر ساعديه، مع الساعة الثالثة صباحاً، يتضخم الصمت، بمقدوره سـماع خطوات عقارب السـاعة الحائطيـة، هاهو عقرب الثواني يسـير بخطوات مسـموعة، ليزحزح عقـرب الدقائق، تشـترك العقارب الثلاثة لميلاد لحظة اسـتثنائية. كأن الزمن يتوقف هنا، هنالك خلف الباب أشـياء ما تحدث لا يعرفها، يعجز خياله عن رسم المشهد، حالة يفقد فيها القـدرة على الفعل، يهم في كل مـرة أن ينظر من ثقب الباب، يتجمد، بعد

دقيقـة واحدة، وثانيـة على الأقل يسـتطيع أن ينهض، يُسرع لفتح الباب يكون الفراغ في انتظاره.

الثالثـة والنصـف صباحاً، صـوت ضربات قادمة من مسـكن جارته، تلك السـيدة المسـنة تعيش وحيدة مع قطتها، تصحـو في هذا الوقت. هذا الضجيج لا يقلقه، يسمع مواء القطة، وسعلة السيدة. ينظر إلى أعلى بجهة المطبخ، ثقب هنالك قُرب مروحة التهوية، يتحول إلى شاشة عرض، يُركز جهة نظـره لهذه الزاوية، يحضر المشـهد بتفاصيله الدقيقة، السـيدة تصعد على كرسي، لتمسـك بطعام قطتها، تضحـك مفتخرة، تداعبها، وتخبرها إنها ما زالت قادرة أن تفعل أشـياء كثيرة، ثم تحكي بعض ذكرياتها، وإنها كانت فتاة جميلة ومغرية، تحكي عن مغامراتها الجنسـية وبعض أسـفارها، عـن حلمها بأن تكون راقصة مشـهورة... تُنهي المشـهد برقصة صغيرة، يداهمهـا التعب، تأخذ حبات الدواء، تـشرب القليل من الماء، ثم تغط في نعسة خفيفة، كذلك قطتها تتفاعل معها، تأكل وجبتها، ثم يسدل الهدوء ستارة الصمت.

السـاعة الرابعة وأربع دقائق، يأخذ شهيقاً، يبتلع بعض الأوكسجين، ينظـر إلى مـا حوله، بعض الأشـياء تبدو كأنهـا تحولت مـن مكانها، يعيد ويكتشـف المـكان، تلك اللوحـة الزيتية الصغـيرة لمعلقة خشـبية وجدها معلقة، ولم يحركها منذ قدومه للسـكن هنا. أثاث هذه الصالة بسـيط، هو لا يكـترث، ولم يفكر بشراء أشـياء جديدة، مكتبة مثقلـة بكتب وأشرطة

فيديو. أمامه جهاز الحاسوب يستخدمه لمشاهدة الأفلام وكتابة هذيانه. يدون أيضاً على الورق، يفكر، يتأمل، يبحر في ذكريات قديمة.

يسند رأسه إلى الخلف، ينظر إلى جهة اليمين، هذا ثقب آخر في الجدار الذي يفصله عن جارته الشابة إيميلي، يسمع اسمها عندما تتحدث بالهاتف، لم يسبق أن صادفها في الشارع أو الحافلة، يحدث أحياناً عند دخوله أو خروجه أن يراها من الخلف تفتح بابها لتدخل مسكنها. هذه الفتاة العشرينية تلبس فستاناً أسودَ قصيراً، شعرها الطويل الأحمر يكاد يغطي وجهها المثلث، عندما يصادفها يُلقي التحية، يظن أنه سمع ردها الخافت، لكنه لم يتشجع للتعرف إليها، تبدو غامضة ومنعزلة، هو أيضاً يحب العزلة، ويحدث أن تمر به أيام لا يخرج، وقد لا يتحدث مع أحد.

الساعة السادسة الآن، تستيقظ إيميلي، تسارع لسماع أغانيها الصاخبة، يتخيلها بملابسها الداخلية أو عاريةً تماماً، ترقص متفاعلة مع هذا النوع من الموسيقا، أصبح يهز رأسه، ويحفظ بعض المقاطع مع تكرار سماعه لها من هذا الثقب.

تمنى أن يكون رساماً، ليرسم هذه الشخصيات التي يسمعها. أصبح يعرف تفاصيل كثيرة عنها، تفصله عنهم جدران، لكن هذه الثقوب هدمت كل الحواجز، فأصبح يتعايش معهم. ربما هم أيضاً يعرفونه، ويسمعونه، ويعايشونه.

إيميلي حالة استثنائية يظهر أنها على علاقة غير جيدة مع عائلتها، كما أنها فارقت رفيقها الذي يحاول العودة إليها، ترفض أن تغفر له خيانته لها،

تلعـن كل الرجـال، وتصفهم بالخونـة الأرذال، متمـردة وقوية، أو هكذا يراهـا أصدقاؤها وصديقاتهـا، لكنها تحمل قلباً رهيفـاً. يحدث أن تبكي، أن تصرخ، يسـمع همسـاتها، وقد تصحو مفزوعة بسـبب كابوس مفزع، تغنـي، ثـم ترقص عارية، وكذلك تعزف على آلـة الكمان، حيث إنها تنتج مقطوعـات رقيقـة هادئة، ثم يحـدث أن تتحول هـذه النعومة إلى صخبٍ غاضبٍ .

قـرر أن يخوض مغامرة، ويكتب عن إيميلي، والسـيدة المسـنَّة وقطتها المدللة، لديه مادة خصبة... بفضل هذه الثقوب والجدران الهشة لا توجد فواصل معيقة.

فكـر أن يثقـب عدة ثقـوب أخرى، لكنـه اقتنع أن لا حاجـة إليها، لا يريـد التلصص، ولم يسـع إليـه، أحاديثهم وأفعالهم تصل إليه، يسـمعها، ثم يترجمها خياله مشـاهد صورية متحركة وحية، يمكنه شـم رائحة عطر إيميـلي، وروائـح المأكـولات والمشروبات وغيرهـا، يتحرك مـن مكانه، يبحث عن دفتر جديد، ليبدأ كتابة قصة جديدة بعيداً عن حديث ذكرياته مع عشيقته، ربما هي ستحضر بالقصة، لكنه مصمم ألا يعطيها البطولة.

يبدأ بالكتابة مسـمياً قصته «ثقوب» انهمـك في عمله، أحسّ بالتعب، يسـند رأسه إلى الخلف مستسـلماً لغفوة هادئة، فجأة يسمع فوضى أجبرته على النهوض، صعود وهبوط وحركة نشطة غير معتادة على السلالم، يدق جرس الباب، ينهض ليفتح الباب، يسـارع، إنها إيميلي بجمالها السـاحر، وجهها المشرق، شعرها الأحمر الحنائي، لم يدر ما يفعل.

تبتسم له وتحييه...

إيميـلي : صباح الخير، أعرفك بنفسي اسـمي إيميلي سـأكون جارتك من اليوم، سـأنتقل لهذه الشـقة رقم 13 واعذرني، فقط أحتاج أن تسـاعد السيدة جاكلين، هي أيضاً تنتقل اليوم للشقة المجاورة لنا، سنكون الثلاثة جيران.

يقـف كالمصعـوق، ينظـر لمجموعة يحملـون أثاث وحقائـب إيميلي، والسيدة المسنَّة، ثم يدخلونها.

هنـا تظهـر السـيدة جاكلين تحتضـن قطتهـا وتداعبها، تتقـدم لتحيته معرّفة بنفسها.

السيدة: مرحبا أنت جارنا، أعرفك بنفسي

اسـمي جاكلـين ، وهذه صديقتـي وابنتي وحبيبتي اسـمها نو، وهذه جارتنا الجميلة إيميلي تعرفت إليها قبل قليل.. يا لهذه المصادفة الجميلة!.. أتمنـى ألا أزعجـك، فقـط أحتاج بعض المسـاعدة، اعذرني (تبتسـم)، أنا اجتماعية مرحة، وربما ثرثارة.

تقترب منه إيميلي، تكاد كتفها تلامس كتفه، يشم رائحة عطرها الذي أصبح يعشقه، يدرك أنه لا يحلم، يتلعثم قليلاً، يبتسم، يحاول بسرعه فهم ما يحدث.

أبو صالح سلطان الرجالِ

الليلة ليلة حضرة مولانا أبو صالح سلطان الرجال، ليلة مختلفة تماماً، ولها طقوسها الخاصة، يلبس الجديد، ويضع في جيبهِ ثروته في صرة قماش، يربطها بعناية، ويتحسسها كل وقت، كونها كنزه الوحيد، ومفتاح أحد أحلامه.

يتفق علي مع رفيقه على أخذ مكان في مقدمة الصفوف، لمشاهدة الطقوس، وألا يفوتهما شيء. هذا المكان المميز للرجال، وليس للأطفال، لكنه يشجع صديقه للتصرف كالرجال، وعدم التفريط في هذا الموقع المهم. الجميع هنا يعرفونه، فهو ابن صاحب مقيم الحضرة، ومن حقه أن يختار المكان الذي يحبه، وأن يصطحب معه رفيقه، فوالده مشغول في الإشراف على عشاء الضيوف. أهل الحارة كلهم هنا وللنساء والأطفال الصغار مكان قريب، لكن لا يحق للحريم مشاهدة كافة التفاصيل. ينظر إلى الميكرفون الذي تم ربطه بقصبة أريل التلفزيون، كي يصل صوت الأناشيد والمولد للحارات القريبة.

ينتظر هذه الليلة منذ سنة، فقد كان مريضاً العام الماضي، ولم يتمكن من حضورها، لكنه هذه المرة، وقبلها بشهرٍ نصحه أحد رفاقه بعمل نذر، للتقرب من ولي الله الصالح الشيخ عبدالقادر الجيلاني صاحب هذه

الحضرة.. يتذكر نقاشه مع رفاقه، وهم يرددون ما يقوله الكبار عن ولي الله، ومعجزاته الخارقة وبركاته التي ينعم فيها أهل الأرض والسماء.

في هذه اللحظة الهادئة قبل بداية مراسم الحضرة بدقائق، حيث يخيم الصمت خلال تناول الفقهاء، وخدم الولي والمنشد للقهوة، يسمع ذلك النقاش الآن يتذكره ويعيشه:

الأول: الكبار يقولون الأولياء لهم عند الله ما يريدونه

الثاني: سيدنا ولي الله عبدالقادر الجيلاني حبس الشياطين والجن، ووضعهم تحت الأرض

الثالث: سمعت جدتي تدعوه بعد صلاتها، وتطلب منه أن يرزق الله أبي، ويقضي ديونه، وبعد أسبوع حصل أبي على عمل، وكسب الكثير ..كله ببركة الولي، لكن لازم تنذر، كما فعلت جدتي .

الرابع : لكن الولي مات... هنا يصفعه الأول على رأسه، وهو يستغفر، ثم يصرخ فيه:

– راح تخسف بنا الأرض بسببك... أولياء الله جلوس تحت عرش الرحمن، هكذا سمعت أمي تردد ما سمعته من القيم حارس مقام الشيخ أبو صالح.

يضيف الثاني: وهم ينزلون من السماء إلى الأرض يساعدون من يدعوهم.. لولا قوتهم كانت الدنيا خراباً، لأن الشيطان ينفخ ناراً

الثالث: يا علي، قل يا أبو صالح، وتنوي بنذر بس يقولون الذي لا يوفي بالنذر.. ربنا يمسخه يخلي وجهه مثل القردة.

الرابع : خل نذرك كبيراً، علشان تتحقق دعوتك، ولكن هل الله والولي يعرفان لغة الأطفال؟ هنا يصفعه الجميع، وهم يستغفرون:

الأول : ولي الله يا ملعون يعرف لغة الطير والشجر والحجر.

الثاني : الذي يغلط على الولي يدخل النار.

الثالث : ولي الله الجيلاني صاحب نبي الله الخضر تحرسه الملائكة، هكذا قال شيخ الجامع.. الأحسن أن لا نتدخل بحاجات كبيرة، ونظل صغاراً.

ينتهي النقاش... هنا يقرر أن ينذر بثروته، ويؤخر حلمه الأول في شراء كرة قدم، جمع هذه الثروة من مصروفه الخاص، فله أحلام صغيرة، شراء كرة، وحلمه الكبير شراء دراجة هوائية.

الولي حسب ما توقع رفاقه نفذ رغبته، ولم يمرض هذه الليلة، ولا أحد يدفعه، أو يطرده من الصف الأمامي المخصص للكبار.. تبدو الأمور جيدة، ولكن عليه دفع النذر الليلة بعد نهاية الحضرة يمر أحد خدم الولي بيده صحن كبير، وهو يصيح من كان في رقبته نذر يضعه هنا.. في اللحظة تنطفئ الأضواء، وخلال جمع النذور فقط.. دقائق قليلة يسود فيها الظلام.. هكذا جرت العادة عند جمع النذور.

ترتعش زهرة روحه مع تراتيل المولد، ثم ترقص بفرح ساحر مع ارتفاع إيقاع الأناشيد.. الجميع هنا يعيش سكرة ترتفع لحظة بعد لحظة، هؤلاء البسطاء لهم همومهم وأحلامهم الصغيرة مثله، هو يتمنى بداخله الآن أن يمتلك كرة تجعله الكابتن على رفاقه. الآخرون أي الكبار مطالبهم

أيضاً متواضعة، أغلبهم يتمنون قضاء ديونهم، أو شفاء مريضهم، وأهم من ذلك البركة في الرزق والعيال، وتفريج الهم. بعضهم في هذه اللحظة الهامة يتمتم بصوتٍ مسموع، ويهمس للولي بطلبه..علي من موقعه الإستراتيجي يسمع هذه الهمسات، ويتفاعل معها، يتمنى من الولي أن يرد على هؤلاءِ، ويحقق رغباتهم.

يرتفع الإيقاع بقوة مع ترديد مقطع «موالي يا موالي أبو صالح سلطان الرجال»، يهتز الجميع، يتدافع خدم الولي - هي لحظة الذروة - ينزل الخدم إلى وسط الحلقة لتبدأ المرادعة، يتناطحون برؤوسهم، يركضون، يضربون الجدران برؤوسهم. قوة غريبة وهائلة تفوق قوة أضخم الثيران. يشعر علي أن الأرض تهتز من تحته، لكنه لا يشعر بالخوف، يتفاعل هو أيضاً يهز رأسه، يكاد يحسُّ بقوة غريبه تدعوه للركض والمشاركة، هنا يقترب منه شيخ الحضرة يمسكه، يهزه... يشعر أنه فهم رغبته، حركة الشيخ جعلته ثابتاً في مكانه.

يسأل نفسه: هذه الشجاعة والقوة أهي كرامة من الولي؟

يظل جسده متسمراً، كما أمره شيخ الحضرة، يتصبب العرق من جبينه، يشعر بقوة داخلية، وأن بوسعه هد الجدران الإسمنتية بضربة واحدة من رأسه الصغير.

تنتهي الحضرة، يلمحه الشيخ، يبخ وجهه بالماء، يشعر بالسكينة، ثم يخرعلى ركبتيه لا يفهم ما يحدث له.

تأتي لحظة دفع النذور، عليه رمي مدخراته، كما وعد الولي، وأن يغترف غرفة من طست فيه تراب جلبوه من مقام الولي. يتسارع الناس إليه، يغترفون منه، يمسحون به وجوههم، وينثرونه على فرشهم، وبعضهم يسفه، أو يمزجه مع الماء كشراب مبارك... في هذه اللحظة يمد يده ليلتقط الصرة، يعود إلى الواقع يحسبها بشكلٍ مادي.. ضياع المال يعني تبخر، أو تأجيل حلمه في شراء كرة ، يعني لن يصبح الكابتن على رفاقة، لن يصبح صاحب فريق يختار الأقوياء، للعب ضمن تشكيلته، ويحقق الأهداف، كونه الكابتن وصاحب الكرة، سيظل مجرد لاعب قد يكون ضمن تشكيلة قوية، وربما ضمن التشكيلة الضعيفة، فصاحب الكرة هو من يقرر، وله سلطة مطلقة تفوق سلطة حكم المباراة، والجميع لا يناقش قراراته هذا قانون اللعب هنا تداهمه كل هذه الأفكار، تنطفئ الأضواء، في بطن الظلمة يمسك بالصرة يتشبث بالحلم، تمر اللحظة، يعود الضوء، تظل يده ممسكة بالصرة في جيبه.

تنتهي الليلة، يهرع إليه رفاقة يسألونه: إن كان دفع نذره؟ يرد عليهم بنعم، يركض ليعتزل، يُحسُّ بفداحة الخطيئة، يندم، يقرر

أن يذهب، ليسلم الصرة إلى الولي يداً بيد.

في الصباح الباكر يركض إلى مقام الولي ممسكاً بالصرة، يصل ويتسلل إلى الداخل، يجثو على ركبتيه معتذراً، ويحاول بصدقٍ شرح موقفه متمنياً أن يكون الولي يفهم لغة الأطفال.

في لحظـة المصارحة هذه يده ترتعش، تمد بالصرة، يتخيل أن يداً بيضاء مضيئة سـتخرج لتصافحه، وتأخذ الصرة، ينتظر فعلاً حدثاً كبيراً بحجم المشـكلة، لكن صوت صراخ حارس المقام ولعناته على هذا الذي جاء إلى المقام، ليسرق التراب، أو يأخذ شـفاعة وبركة مجانيـة...في البداية لم يفهم صراخ القيـم، لكنـه تنبه أنه المتهـم والمقصود، لم تحدث معجـزة، المعجزة كيف يفلت من الحارس؟

يقفـز بسرعة متجـاوزاً سـور المقام، يركـض هارباً، بينـما هو يركض يتجـاوز المقـبرة، فجـأة يحسُّ بكـرة أمامه يظـل يركلها، ويركـض إلى أن يتجاوز مرحلة الخطر، تتدحرج الكرة، تستقر، يُسرع لتفحصها. إنها شبه جديـدة وقويـة، وأفضل من الكـرة التي كان يحلم بهـا، يتفحص جيبه... الـصرة موجودة، كيف حدث؟ مـاذا يحدث بالضبط؟ أهو الولي فهم لغة الأطفال؟ هذه الكرة أهي رزق من الله سـاقه الله إليه؟ أهي محض صدفة، ومجرد حظ؟

يـركل كل هـذه الأسـئلة، يحتضـن الكرة، ويركـض لتشـكيل فريقه الرياضي.

ثلاث حالات

1-3

1

كانت الشمس تعزف مزاميرها في الصباح الباكر، توقظني قاطعة المشهد الأخير من الحلم، لحظة الذروة.. كنت على وشك فعل شيء ما.. ها هي الشمس تمشط شعرها بغرور متباهية بأنها ترى الحقول والأزقة وأصابع الموج، وأنا في صف الطابور المدرسي كنت أتظلل بغيمة تحب الرقص، نهرني أستاذ التربية الدينية، وعاقبني بالطواف سبعة أشواط حول غيمة سمينة وكسولة تركها قطار الريح، لخوفه من شبقها، بعد أن أكلت ترَائِب تسع غيمات، كنت أركض، وأصرخ محذراً صديقتي الراقصة.

أتخيل أن شاربي قد نبت في حصة النشيد الوطني. أتحسس طعنة الرماح، وصراخ خالد بن الوليد يصعد جبل أحد.. غضب المعلم مرة أخرى، لأني قرأت الدرس الملغى من المنهج، زمجر.. عربد، ثم طردني من الفصل.

لأني لا أجيد السباحة في بركة الوضوء. كنت أركض إلى تبة التراب، أتسلقها، أظنني بلغت السماء الأولى، وقت الظهيرة الحار، يبني

السراب جدرانه من ماءٍ باردٍ وشرابٍ، تسخر منه الفراشات العائدة من الحقل، صوت رصاص.. الآن طائرات الأباتشي تقصف التل والربوة والفراشات، تقصف الطفل والمدرسة.

2

السماء، هذه البالونات الهوائية الزرقاء، بمقدرتي مصافحة الله، لو صعدت سطح أعلى غرفة في بيتنا، استعرت معراج المسجد المجاور، أشعر بالأرض تميد، لكنها بعيدة الآن، خمسة أمتار، لا بل سبعة وربما عشرة، أرى الرفاق يلعبون الكرة بالساحة قُرب المقبرة، رفيقي يضيع هدفاً سهلاً لو كنت في مكانه سأركلها بذكاء، فبعض الأهداف تحتاج منك الهدوء، وأخذ أنفاس هادئة، في الجهة الأخرى، يا الله!.. إنها بنت الجيران تغتسل عارية، تفرك قناع الصابون على وجهها.. لأول مرة أرى جسداً أنثوياً عارياً. يتحتم الموقف أن أنزل ثلاثة أمتار، هبوط، لحسن الحظ أغصان شجرة الليمون تمد أياديها، تحتضنني لفرجة ساحرة.

3

هـذه الخطـوات العشر كانـت أصعب لحظـات في حيـاتي، فقط أعبر الزقاق، وأصل إلى عتبة بيتنا عند عودتي من المذاكرة مع رفاقي في التاسعة مسـاءً. كان ذلك الـشيء ينتظرني، أسـمعه يلْهَث، في دُبـره ملعقة كبيرة، ويغطـي وجهه بعجينـة خبز طرية، نعم، هـو، أظافرة الطويلـة القذرة لها روائـح كريهـة، ربما بقايا لحم آدمي . نعـم، لا يمكن لأحد أن يزعم رؤية وجهه كاملاً، لأنه لا تفاصيل له نسـتطيع نحن البشر فهمها، ذلك الوجه ببسـاطة لوحـة سريالية مرعبة، يقـال إن له ثلاث أيـادي: واحدة قصيرة، وملتويـة تشـبه مقبـض البـاب، والثانية عادية، أمـا الثالثة، فهـي طويلة، ويسـتطيع مطهـا. اسـترقت النظر ذات مـرة لقدميه اللتين تشـبهان خف الجمل.

نصـف دقيقـة كي أصل، أسـتحضر آيـة الكرسي، وأهمس لسـيدي، ومولاي عبدالقادرالجيلاني نعم، أحتاج مساعدتك.. الآن.

يا ربي أنت موجود وقوي، وبمقدرتك أن تحرق الشياطين والعفاريت، فلماذا لم تفعلها؟

سـمعت أنهم فروا من سـجون الملك النبي سـليمان بن داود، لكن ما الـذي يفعلونه هنا؟ لمـاذا يختبئ هذا الوحش المفزع في تلك الزاوية بالزنقة المؤدية إلى بيتنا؟

تكثـر الأسـئلة في رأسي الصغـير، حفظـت أدعية كثيرة فقـط لمواجهة هذا الموقف، سـأحرقه الليلـة لو وجدته. إنها لحظـة المواجهة، كأن الزمن

يتوقف، لا أسمع شيئاً، فقط أنفاسه، الدم والصديد يقطر من مؤخرته، أخطو الخطوات الثلاث الأولى، فجأة، ضجيج، ثم أكتشف القط الرمادي، والقطة البيضاء ذات البقع الزرقاء يتزوجان، يحتلان تلك الزاوية المظلمة، تقترب يدي، لتمسك مقبض الباب، بقيت الخطوة الأخيرة، يا الله.. جسدي يقشعر.. لم يكن مقبض بابنا! ...

بيل فيل

يسير في الشارع، يترك لساقيه أن تقوده، دون أن يبدي مقاومة، أو يعطيها إشارة عن الجهة التي يريدها. الآن توشك الشمس أن تودع المدينة، هنا باريس، يا لها من مدينة تحوي الكثير من السحر والغموض والمفاجأت! سكنته منذ الساعة الأولى قبل عدة سنوات، لحسن حظه ما يزال شاباً، أو هكذا يُحسّ، يتحاور مع نفسه. يصل الآن لمنطقة شعبية ترى فيها كل الوجوه من جميع أنحاء العالم، قرية مصغرة للكون تضم نماذج لجميع الجنسيات ومحلاتها وأسواقها كذلك، تجد المأكولات العربية والصينية والإفريقية، ومطاعم فرنسية وإيطالية. لوحة مدهشة تفوح بالتنوع، وضجيج يتكون من خلطات لغوية متنوعة. الجميع يتحدث بلغته ولهجته، ويلبس زيه الشعبي ، وهكذا هي حياتهم هنا أشبه بكرنفال دائم، هي حياتهم الطبيعية هكذا.

إنها (بيل فيل) يزورها عندما يشتهي تناول وجبة مختلفة، لكنه لا يشعر بالجوع، وليس من مدمني الحشيش، أو المخدرات. لماذا ينقاد إلى هنا؟ لم يأبه بالرد على السؤال، يسير متأملاً بعض المشاهد، في كل زاوية يجد مشهداً مختلفاً ينقله إلى بقعة ما من الكون، يترك لنظره تصوير بعض الأحداث في هذا المتحف اللامحدود.

يتوقف للحظة، يرفع رأسه إلى السماء مستمتعاً بلحظة الغروب، هنا

تتقدم نحوه ثلاث راهبات، يحطن به، يمطرنه بالتحية، تتحدث الأولى:

- مرحبا، نحن الأخوات الثلاث مبشرات المخلص.. يبدو أنك مؤمن، ولتسمح لنا بدقائق لنحدثك عن أبينا يسوع المخلص.

قبل أن يرد تسارع الثانية تمد إليه بنسخة ملخصة للكتاب المقدس، تبتسم:

- سيدنا يسوع يحزن الآن علينا، وهو يرى الناس يتخبطون، دون أن يغسلوا خطاياهم التي ضحى من أجلها، أي من أجلنا جميعاً. إنه هنا، وسيظل مخلصنا إلى الأبد.

تتقدم الثالثة:

- الآن أنت مقتنع، خذ هذه النسخة، وتأمل كلمات الرب، لتعيش بسعادة، وستجد هنا عنوان كنيستنا، ومواعيد الصلوات، الآن عليك أن تتبرع ببعض المال للرب.

يرتبك، يبتسم، يُخرج من جيبه يورو ويسلمها للأخيرة. تنظر إليه، وهي تتأمل قطعة النقود، ويبدو أنها غير راضية بعض الشيء، تبتسم الأولى:

- المال ليس كل شيء.. سننتظرك يوم الأحد، لتحضر القداس.

يأخذ الملخص، يشكرهم، يتركنه، ويسرعن لمحادثة شخص آخر.

بعد خطوات قليلة، أحدهم يسرع بجره بعيداً، الرجل الملتحي والبدين لا يعرفه، يأخذ الكتيب الصغير منه، يمزقه ويرميه في المزبلة، يعنفه بعبارات قاسية:

- أنـت مسـلم، كيف تقبـل أن تضـع في جيبك كتـاب النصارى، ألا تخـاف غضـب المنتقم الجبار الـذي لا يغفـر الشرك والكفـر به؟!.. أنت مسلم، وكتابك القرآن الكريم يهدي إلى الرشد، هؤلاء حطب جهنم، وبئس المصير.

يحاول الشاب أن يشرح لهذا الرجل وجهة نظره، لكنه لا يترك له مجالاً، يواصل الرجل حديثه، وهو يعطيه كتيباً صغيراً

- خذ هذا طريق الهداية والجنة، الجنة عرضها سبع سموات وحوريات وولـدان ونعيـم مقيم.. هات خمسـة يورو نحن نبني مسـجداً لهداية النـاس، لنخرجهم من الكفر والضـلال إلى الرحمة والجنة.. ألا تحب أن يكون لك حوريات وولدان؟ هات..هيا عليك أن تساهم.

يجد نفسـه مضطراً، فصوت الرجل أصبح غليظـاً، وعليه التنفيذ على الأقل كي يتخلص من هذا الموقف. يسـلم المال للرجل الذي يصفعه على كتفه، ثم يبتسم:

- أنـت أيهـا الشـاب سـتجد عنـوان مسـجدنا، ومواقيـت الصـلاة والـدروس بالكتيـب، واحـذر أن أراك تأخذ كتـب النصارى، هذه المرة نصحتك، وفي المرة الثانية سأكسر رقبتك.

مـع هذا التهديد يجد نفسـه يسرع في خطواته، ليبتعد ويرمي نفسـه في شارع مزدحم.

ها هي تباشـير الليـل تفتح دفترها، يُحسّ أن حلقه جـفَّ تماماً، يدخل

إلى إحـدى الحانـات، يطلب كأس جعـة، هنا يقترب منه شـاب إفريقي، يقف بجانبه:

– أنت لدي أصناف راقية من الكيف لن تجد مثله في السوق، هيا هات عشرة سترى العالم جميلاً.

يعتذر لمتحدثه شاكراً

– أشكرك لست بحاجة لهذا

تتغير ملامح الشاب الإفريقي ، ويُخرج من جيبه سكيناً صغيراً

– هل أنت غبي؟

عليك الدفع يا أبله .. أنا لا أضيع وقتي بدون مقابل.

تحت هـذا التهديـد، يضطر للتنفيذ، يأخذ قطعة الحشـيش يدسـها في جيبه، يشرب كأسـه دفعة واحدة، يدفع ثمن الكأس، يخرج مرتبكاً، ينظر إليه بائع الكيف، يودعه ضاحكاً:

– ستشكرني عندما تجرب، لا تنس ستجدني هنا..اسمي بوب صاحب الكيف العالي.

بعد لحظات من خروجه يصطدم بامرأة، لم يكن يقصد ذلك، تبدو أنها بائعة هوى آسيوية، تبتسم له، يعتذر لها

– لا داعٍ للاعتذار. هل يمكنك أن تشعل سيجارتي؟

يسـتخرج قداحته ويناولهـا، تأخذها منه، وهي تضحـك، تقترب منه أكثر:

– أنت شـاب لطيف، يمكننا الذهاب إلى بيتـي، أنا ماهرة في التدليك

وأشياء أخرى، ولن تكلفك هذه المتعة كثيراً فقط تدفع 50 يورو لنصف ساعة لتعيش في الجنة.

يأخذ قداحته، يشكرها، ويحاول أن يبتعد، تمسك بيده، تضعها على صدرها، ينتزع يده، يهرول مبتعداً، يشعر أن أحداً يلاحقه، يلتفت تكون وراءه بائعة هوى رومانية، يبدو أن هذا الزقاق خاص بالعاهرات، عشرات من كل لون وجنس يعرضن أجسادهن للمتعة، يتوقف للحظات للبحث عن مخرج، يجد نفسه قرب موقف الحافلات، لحسن حظة تتوقف حافلة، دون تردد يسارع بالركوب، يشعر ببعض الراحة، يجلس قرب النافذة، تنطلق الحافلة.

ما الذي يحدث؟

سأل نفسه عدة مرات، هو يعرف هذا المكان، ويستمتع بهذا التنوع والألوان، ويعجبه التوقف لسماع أغاني الشارع، وعزف بعض المتشردين. يعجبه رسامو الشارع وباعة التحف، لكن هذه الجولة صادف باعة من نوع آخر، ليس غريباً أن تصادف هكذا باعة وعروض، لكن الأساليب تغيرت.

بينما هو يحاول أن يغمض عينيه، ليأخذ غفوة للحظات. تتوقف الحافلة، لقد وصلت للمحطة الأخيرة عليه النزول، لم يهتم بموقعه، بعد خروجه من الحافلة يجد نفسه بحاجة للتدخين، يشعل سيجارته، هنا تقترب منه فتاة فرنسية جميلة، بحياء وبصوت خجول تطلب منه سيجارة:-

– مسـاء الخير .. معذرة هل من الممكن أن تعطيني سـيجارة، يبدو أني فقدت علبتي.

يلبي طلبها، يبادلها الابتسامة، تشكره الشابة لكرمه، تمد يدها لتحيته:

– يمكننـا أن نتجول قليلاً .. أعشـق هذا الطقس، وهـذه المنطقة غنية بالدهشة.

يوافقها، يسيران، يعرفها بنفسه، يسألها عن نفسها.

يتوقفـان قـرب مقعـد، يبدو المكان شـبه خـال، ينظر إلى القمر يسـير بخطـوات بطيئـة يتخطـى غيمـة داكنة، يجلسـان، تقـترب منه، يتشـجع لملامسة كتفها، تنزع معطفها الخفيف.

– أنت لطيف وخجول، تحب أن نمضي بعض الوقت؟

هنا المكان خال، والجو رومانسي.

– اعذريني .. أنا مرتبك بعض الشيء حدثت لي مصادفات غريبة.

ـ هنـا يحدث كل ما تعجـز أن تتخيله، هذا عالم يختلف عن غيرة، تحب أن تتمتع معي تمسك يده تغرسها بين فخذيها، تكشف عن صدرها.

يزيد ارتباكه، يزحف مبتعداً، تمد يدها، لتداعب فتحة سرواله.

ـ انتظري يمكننا الذهاب لتناول كأس.

هنا يظهر ظل شخص، تهبط يد غليظة على كتفه، يكون وراءه أحدهم يخاطبة بلهجة تهديد

– هيـا ادفع إليها مـا عليك.. 50 يورو لا تنقص مليماً، وإلا سأهشـم رأسك.

تنهـض الفتاة، وهي تضحـك، تتغير ملامح وجههـا البريئة، ترقص، ترفع فستانها القصير، لتكشف عن مؤخرتها، تخاطبه ناصحة:

ـ المال وإلا ... هذا قوادي الشرير، ولا يمزح.

يتلعثم الشاب، لا يدري كيف يتصرف!

يصاب بالصدمة.

السعادة على الطريقة اليمنية

بينما هو يسير، ويخطو أول خطوة في السوق الذي تظهر صورته شاحباً، صامتاً، متحسراً، وليس السوق كسابق عهده الضجيج والصخب والازدحام، وأصوات الباعة تنادي بصوت عالٍ، وتمنح تخفيضات تنافسية.

الوضع اختلف تماماً يا صديقي ، لم يعد السوق مثيراً كأننا نعيش الزمن المفقود ـ قال له صديقه المعلم التربوي، والذي يبدو أنه يعيش نفس الشعور، إحساس بتضخم الوجع.

ضحك «عبده معرفة» هكذا يلقبه رفاقه، لأنه يبحث عن المعرفة بالقراءة الكثيرة، وهو أيضاً معلم لم يتسلم راتبه منذ عدة سنوات، لم يفوت عبده معرفة الفرصة، ليصحح لصديقه بقوله : الزمن المفقود رواية عالمية للكاتب الفرنسي مارسيل بروست تحدث فيها الكاتب عن ماضيه، وهي تتسم بالواقعية، لكن الكاتب صور ببراعة ما يسميه تحت السطح، حيث جوهر الحقيقة.

قاطعه صديقه فارس، وكأنه لا يريد سماع المزيد : أخي معرفة.. لا نحتاج المزيد كفيت ووفيت.. لكن الثقافة والمعرفة اليوم «ما توكل عيش».. نحن في حالة انحناء إلى الأسفل، تجمد، وارتباك، ونظرات فارغة منكسرة، وفوق كل هذا شعور بالانفصال عن العالم الذي نسمع

عـن تطوره ورفاهيته، ولا يظهر أي اتجاه آخر، أو باب نجاة لنا.. انظر إلى مـا حولـك الحبة البيضة بمية ريـال، وهي خفيفة الوزن كالريشـة، عندما تلمسـها وتضعها في يدك تحسـها فارغـة وزنهـا -لا أدري- ثلاثون جرام وشـوي، أي أقـل من نص بيضة بتاع زمان، الحبـة الجبنة البقرة الضاحكة بتسـعين ريـال، وأما الدجاجـة فهي حلم بعيـد المنال، لكن شـوف ذلك البايع عنده الحبة الرصاصة بخمسـين ، ولو اشـتريت عشر حبات يخليهم بأربعـين، ولـو تريد مئة يعطيـك الحبة بثلاثـين ، ثم تابـع الصديق بشرح أكثـر، يعني الحبة البيضة ما ممكن تخلي واحد شـبعان سـاعة، والرصاصة ممكن تقتل واحد واثنين في ثانية. وسائل الموت سهلة ورخيصة، وببلاش.

خـلال هـذه المحادثة تبدو مظاهر السـوق عادية، ولكـن بعد لحظات تصل عربة بائع الخبز..

ينادي بأعلى صوته : الخبز الخبز .. اليوم ربنا يحب الفقراء والجوعانين .. تخفيضات مذهلة.. يهناكم اليوم بنص السعر.

تكون كلمتاه الأخيرتان بمثابة مفاجأة غير متوقعة للجميع، مما يؤدي لتحريك المشـهد وتنشـيطه، يتراكـض الناس نحوه بجنـون، وفي لحظات معدودات يضج السوق بالناس من كل فج عميق، أحدهم اشترى كيساً، ومـر بعبده وصديقه الذي بدأ يسـتعد للدخول إلى معركة، توقف الرجل يحـض عبـده أيضاً، فتـح الرجل الكيس وفاحـت رائحتـه الغريبة، أدرك الرجـل أن القمح فاسـد، وربما صنع هذا الخبز من القـش، وليس القمح

مع ذلك حمد الله على النعمة، وهو يهمهم: المهم بطون الأولاد تشبع شيء، لنا يومان بدون أكل.

تحدث هنا أشياء لا يتصورها عقل بشر، ولم يتنبّأ بها عراف، أو نبي، عبارة ترددها امرأة عجوز فشلت في الحصول على عدة أقراص من الخبر المتعفن، لكن الدنيا ماتزال بخير، فقد سمع كلماتها شاب يبدو في العشرينات من عمره، وتبرع أن يدخل معركة الازدحام ثانية، ليجلب للحاجة الضعيفة المسكينة بعض الأقراص، وفعلاً أخذ منها المال، ونجح في تنفيذ المهمة بوقت قصير جداً .

كانت السيدة العجوز ترتجف، والكل هنا يرتجف كأوراق تتجه إلى المزيد من اليباس دون موت.

حمدت الله وشكرته كثيراً هذه السيدة، وهي تأخذ الأرغفة، وكأنها حصلت على اليانصيب وبدت خطواتها أكثر صموداً وخفة، وهي تغادر بهذه الغنيمة .

أحياناً يكون الذهاب إلى السوق كخروج عصفور من قفصه، بعدها قد يهبط على أقرب غصن يملأ صدره بالهواء النقي، ويظل ينظر إلى المكان الذي فر منه، وقد تهبط بجانبه على نفس الغصن عصافير مثله فروا من الأقفاص يفعلون نفس الفعل، التنفس بصدر مفتوح، والتحديق مكان سجونهم القديمة، قد يكونون جوعى، يظلون جامدين لا يحركون مناقيرهم، لالتقاط ما يمكن أن تجود به الشجرة. لو أمسكنا بهذه العصافير، وأرجعناها إلى أقفاصها، ثم سمحنا لهم بالهروب قد يكررون

نفس الفعل. يذهب الناس إلى الأسـواق، ليعرفوا من مات، أو انتحر، أو أصيـب خلال القصف الذي يحدث دون سـابق أي إنـذار، تكون النتيجة كالعـادة قتلى وجرحى وخراب بعض البيوت. الناس في السـوق تبتسـم لبعضها، رغم الألم، وكأنهم يباركون لبعضهم بعض البقاء على الحياة.

لم يأبه فارس كثيراً لهذا الهذيان، وفضل عدم مناقشـته، لأن الوقت من ذهب خاصة بوجود خبز رخيص السـعر. انطلق الصديق للحصول على أرغفتـه، وظل عبده معرفـة متجمداً، ويصور بعين حزينـة ما يحدث، ولم يتقدم بخطوة، لأنه لم يكن يملك فلسـاً واحداً. الذهاب إلى السـوق يكاد يكـون فسـحة، وربما بحثاً عـن أي فرصة عمل. هو معلم مادة الفلسـفة، ولا يجيد أي أشـياء أخرى، وكان يعتمد على راتبه، بعد فقدان الراتب هو وكثيرون أمثاله فقدوا كرامتهم وحياتهم.

عاد الصديق، ووجد عبده في حالة ذهول وصمت، فهم حالة صديقه، فتح كيس الخبز ، وأخذ عدة أرغفة ووضعها في يد صديقه، وقف بجانبه يتأمـل أيضـاً الذين يعـودون بأكياس الخبز، ضحك يشـبه البـكاء، تبرع أحدهم بشرح طريقة التغلب على العفونة في الخبز:

يـا أخـي نأكل الـدود قبل ما يأكلنـا، العفونة هي أيضـاً دود ناتجة عن بكتيريا، يمكن تشـتري عليها نص علبة صلصـة صغيرة، تخلط الصلصة بملح وفلفل، وهات يا هفت وتغميس، ونأكل والحافظ الله.

ظهرت وجوه الناس مبتسـمة وراضيـة، الكل لم يناقش بائع الخبز عن مكونات هذا الشيء الغريب، أظهروا القبول بقسـمة الله وقدره، مرددين عبارة الحمدلله على كل حال.

النخلة مريم

أقتربُ من أشجار النخيل، وبالتحديد أتجه إلى النخلة التي نسميها نخلة مريم، كونها مميزة وارفة الظل وكريمة الثمر. حسب الوعد سيكون اللقاء قبل الغروب، لديها أسرار وحكايات مهمة، الكثير من القصص عن الذين سكنوا هنا، ثم أسكتهم الموت، الذين أقاموا أفراحهم، وأطلقوا الكثير من الرصاص الحي من بنادقهم وأسلحتهم الخفيفة التي كانوا يستخدمونها في مواسم الفرح والأعياد والختان، نادراً ما يحدث خطأ بسبب إطلاق النار، لكنها تحدث من حين إلى آخر، وقد تقتل، فيكون قتلاً غير متعمد وتكون الدية، وقد تورث الحادثة إعاقة جسيمة .

أجدني متحمساً لهذا الموعد تسبقني خطاي.

لم أخبر احداً بما يحدث لي ، منذ تعلمت لغة الحديث إلى النخيل، سيقولون مجنون بلا شك من يتحدث إلى الشجر، أو الطيور، أو الحجر، وكأنها لا تملك روحاً، ولا أحاسيس. أختلف عنهم، عن رفاقي الذين ينقسمون إلى ثلاثة أنواع : نوع كالدواب يعيش حياته ببساطة، أي لا فكر ولا صداع، ونوع لا يهتم بشيء إلا المرح واللذة، ونوع ثالث يرى العالم أسود قاتماً، ويجادل في كل شيء.

ما يهمني هو هذا الموعد، وهذه النخلة التي تمد رأسها إلى السماء، يكاد يلامس الغيم. أتقدم إلى الأمام، وكلي لهفة وحماس، لم أكن متخفياً، وأنا

أسير على كورنيش الحديدة قرب الشاطىء، حيث يزدهر في هذا التوقيت قبل الغروب لحظات تكون الشمس في مجد لطفها ورقتها، والطقس البديع رغم وجود رطوبة عالية على مدار السنة، لأن هذه طباع المناخ وقوانين الطبيعة. الكثير من العوائل تخرج بكامل عددها بحثاً عن الهواء النقي. وليمة البحر السخية النسيم العليل، يتسكع بعض الشباب العازب أيضاً، رغم كثرة قوانين صارمة يسمونها قوانين الفضيلة، والتي تمنع أي تواصل أو معاكسات، في هذه البقعة من الأرض تصعب المغازلات. الفتيات يرتدين الأسود والبرقع، ولا يظهر منهن سوى العيون والعيون قد تكذب، لكن حكايات عشق تُولد هنا أيضاً في زمن الحرب والخوف، والقمع البوليسي الحديدي بدعوى حماية المجتمع، وتحصينه من الفساد.

النخلات الصغيرات مصفوفات عن اليمين واليسار يُلوحن للبحر أيضاً كأميرات صغيرات، يلوحن إلى أمهم النخلة مريم. علمت أن كل هذا النخل على الكورنيش وحوله، ونخل تهامة الساحلية من مشرقها إلى مغربها لهم أم واحدة هي نخلة الله مريم، مع ذلك لا يبدو عليها الهرم، ولا العجز، ولا الجفاف رغم قسوة الجو، لأنها نخلة مباركة أتت من صلب تلك النخلة التي هزتها السيدة مريم العذراء، خلال ولادة السيد المسيح، لذلك هي تحمل جينات غير عادية، وتبدو كملكة أنيقة لا تحتاج إلى زينة خارجية، فهي أصبحت زينة المكان والزمان.

لم أكن بطلاً لأي حكاية حقيقية، ربما فقط بعض المواقف الصغيرة، والتي لا ترقى لمستوى حكاية يتناقلها الناس، حتى القصص التي أكتبها

قـد لا أظهر فيهـا، ولا أحشر نفسي في الأحداث. قد أكون معتلاً نفسـياً، ولكـن هذه سـمة عصريـة، فمن باسـتطاعته أن يدعـي السـلامة العقلية والنفسـية في هـذا العـالم والواقـع المعاش بـكل قبحه وهشاشـته وجنونه وعنفـه، أمـا هي رغم أنهـا نخلة، فتسـتحق دور البطولة المطلقـة هذا من حقها.

في بلـد تعيـش حربـاً مرعبة يكون البحـث عن أمل صـادق أو كاذب مطلبـاً مثله مثل الخبز الـذي أصبح نادراً وغالياً، وبـدون أي جودة، مثلي مثـل الجميـع يبحث عن أي حبل للتشـبث والنجاة قدر المسـتطاع. ليس مضموناً العودة إلى البيت كلما خرجنا، وليس مضموناً إن بقينا ألا نموت من القصف الذي قد يأتي من البحر والسـماء. لا توجد أي ضمانات، ولا شركات تأمـين على الحياة، كذلك لا توجد أي ضمانات أن يظل أي شيء في مكانـه كالبيوت والمستشـفيات، وحتى المقابر، وكذلك الأشـجار. أنا أكاد أصـل المـكان، بقـي لي ألف خطـوة، تداهمني هذه الأفـكار، وكدت أصعـق، وأتجمـد في مكاني، لأني بذلت جهداً كبـيراً، كي أتعلم هذه اللغة الجديدة. ماذا سيحدث لو أصابها مكروه من قصف عشوائي، كما يحدث في الصباح والظهيرة والمساء.

ذات مرة قالت لي ناصحة: إياك أن تحب. هذا نذير شؤم .. أنتم البشر تمتلكون قلوباً تتقلب سريعاً..

صمتت لبرهـة، وحدثتني عن هذه المدينة ـ كانت الحديدة مدينة ذات مبـانٍ مـن الحجر، سـقوفها خشـبية ملونة، ذات شـبابيك كثـيرة وجميلة،

وأزقة تفرشُ للناس الظل في الظهيرة، وفي الليل يُطل القمر مبتسماً يسمع الحكايات، تحكي الجارة لجارتها أنها قضت ليلة ممتعة، ثم تأتي بقية النساء يستمعن لتفاصيل أكثر، ويطرحن التساؤلات عن الأعشاب المقوية للرجال، وتجارب العطارة التي تحافظ على جمال المرأة ونعومتها. أحاديث كثيرة تدور حول الجنس، والإيمان، والطبخ، وتربية الأولاد.

تتنهد، تُكمل بحسرة: ثم صعبت الحياة، وجاءت الحرب، لتجعل الناس غرباء عن بعضهم، ومنقسمين يعتريهم الخوف، وأهملت النساء زينتهن، وفقد الرجال الكثير من قواهم، تهدمت بيوت كثيرة. أصبحت النوافذ والشبابيك داكنة مغلقة، والأزقة تعيش الرعب.

كانت تحليلاتها تعجبني جداً، التحليل الاجتماعي، والسياسي والنفسي لواقع خارج عن كل شيء، فيه الكثير من الفنتازيا السوداء والتراجيديا المفجعة..

قد تكون حكايتي أقل الحكايات رعباً وتشويقاً، هنا وكل الأماكن في اليمن الذي كان سعيداً! المخاطر في كل مكان، وفي كل لحظة. أرى بوضوح نخلتي المقدسة ذات الأثداء الكريمة والصدر المنتفخ، وأكاد أحسّ نبضاتها، وهي أيضاً تكاد تحسّ نبضاتي المتوترة والقلقة، فجأة يتغير لون السماء والأرض، وطعم الهواء، دون سابق إنذار .... قصف، قصف، الكل يصرخ ويركض، يتعالى الغبار والدخان، أحسّ أني أدفن الآن في

تابوت، والتراب يُهال فوق التابوت. ظلمة دامسة، اختناقات في مثل هذه المواقف. هناك من يفقد سمعه وبصره، أو ذاكرته وعقله، أصرخ، نخلتي .. النخلة.. النخلة، لا أحد يستمع لي، أو يتجاوب مع صراخي المذعور، لا أتذكر لماذا أنا هنا؟ وعلى أية نخلة أنادي؟

رؤوس مبتسمة

تعالت التكبيرات من أغلب الجوامع، ومساجد مدينة بيت الفقيه في غير وقت الصلاة. لم يحن بعد موعد صلاة الظهر. ماتزال أكثر من ثلاث ساعات على الموعد. مثل هذا النداء أصبح دلالة مفهومة على وجود جنازة، لكن من العادة أن يسمع الناس نداء من جامع أو جامعين. بداية هذا اليوم تبدو مختلفة ومرعبة، تدفقت الجموع، وكل واحد يسأل ماذا حدث؟

الذين يريدون الأخبار طازجة مع التحليل، فعليهم التوجه الى دكان البقال «أبو نادر» والذي يتبرع بنقل المستجدات وروايتها مع التحليل المشوق. كان الازدحام قد بلغ ذروته بسرعة. وقف أبو نادر، وعلى وجهه الحزن، وبكلمات مؤثرة بدأ يستعرض أننا في حالة هدنة : نحن في حالة هدنة، لكن الخروقات كثيرة، ولأننا خارج نطاق اهتمام العالم، فلا تأتي هنا لا قناة الجزيرة، ولا غيرها، خمس سيارات محملة بخلق كثير. كانوا في طريقهم إلى سوق الجراحي بمواشيهم ودوابهم المتعبة وبضاعتهم. قالوا لهم: اسلكوا الطريق الترابي الجديد، وهناك كانت الكارثة، حوصروا بين الألغام، وانفتحت عليهم أبواب الجحيم.

فجيعة غير منتظرة لمدينة ظنت أن أيام الموت المرعب قد مضت. قال أحدهم : نحن مدينة لا فيها معسكرات، ولا مطار، ولا ميناء، والناس

عـلى باب الله لا معهم أسـلحة، ولا مدافـع. يبدو أن «أبو نـادر» لم يكمل بعد الخبر، أخذ بعض الأنفاس وبدأ يكمل : الحقيقة حدثت اشـتباكات، ومش فقط الألغام، الآن الضحايا أكثر من خمسين، والمصيبة أن الضحايا صاروا أطرافاً مبعثرة، وما يقدر أحد يميز جثة صديق ولا قريب.

اهتزت أركان المدينة من شرقها إلى غربها بأصوات العويل، وتراكض النـاس إلى المستشـفى العـام الريفـي الصغـير. حمـل بعضهـم بطانيـات، وأصبحـت الأمـاني أن يتعرف الأب على جثة ابنه، فلربما يسـتطيع غسـله وتكفينـه. بعض الأطفال ركضوا أيضاً، وفي مخيلتهم أسـئلة كثيرة. يقول أحدهم : كيف سيتعرفون عليهم؟ وكيف سيدفنونهم؟

يرد الآخر: في قبر جماعي، ليكون معنا نصب الشهيد..

يسـأل آخر سـؤالاً أكبر منه : والأجسـاد المثقوبة هل سيسدون ثقوبها بالقطن أوالشاش؟ يصمت الجميع، حتى الكبار الذين سمعوهم .

لم يكـن الموت المفجـع غريباً على هذه المدينـة، ولا أي مدينة يمنية منذ بداية الحرب. ثماني سـنوات قاسـية، تدرب الناس خلالهـا على الكوارث والفقدان، وتوديع الأحبة والأصدقاء. سـبق أن شـهدت هذه المدينة مثل هـذه الحـوادث في أيام الحـرب، لكن في فترات الهدنة يظـن الناس أنهم في سلام، ويتصرفون دون حذر شديد .

رغم الازدحام، لكن الصمت يخيم على مكان الحشـود. تمكن أبو نادر صاحـب العلاقات الكثـيرة المتعددة مـن دخول المشرحة، حيـث تمّ جمع الأطراف على بساط من البطانيات والرؤوس التي انفصلت عن أجسادها

على ثلاثة أسرة تغطيها ملاءات بيضاء نظيفة، وفي أكياس سـوداء تم جمع كتل وأمعاء. تم فتح النوافذ ليتسـلل الضوء، وتشـغيل المولد الكهربائي الاحتياطـي مـن المكيفـات، ظهر المـكان بـارداً كأنه قبر جماعـي في أعماق الأرض. خطـا أبو نادر خطواته الأولى، وتعرف على بعض الرؤوس التي ماتـزال بعض ملامحهـا واضحة، ثـم صرخ بقوة، صرخة مدوية سـمعها الجميع، تجمد في مكانه، وهو يشـاهد أحد الرؤوس، سـكون تام، سـارع بعضهم إلى مساندته إلى الخارج، وهو يردد: الحمد لله الذي لا يحمد سواه.

سارع نحوه الكثير يسألونه، ظل الرجل صامتاً متجمداً، تمتم الممرض الـذي أخرجه مـن المكان بصوت منخفـض: كان الله في عونه.. وجد ابنه نادر ضمن الرؤوس المبتسمة.

المغادرة

1

يشعر كأنه بتقاسيم وجه أحد التماثيل البرونزية الصلبة العابسة. يعجز بكاء أصدقاء رحلوا، آخرون يصطفون في طابور طويل نحو قطار المغادرة يقوده الموت، تتقدم نحوه محاولة التهوين عليه قليلاً : كانت حياتهم لا سعادة فيها منذ أكلت الحرب الفرح، ربما هم في مكان أفضل، وليسوا برفقة مصاصي الدماء، يكفي الإنسان راحة أنه لا يسمع الأخبار المقرفة.

تحركت إحدى عضلات وجهه، بدأ الفرح في داخله ينمو ببطء شديد.! رد عليها: تسمينها حياة، ونحن نتعفن هنا، ولا نموت.

تلتقط كأسها، وتأخذ الرشفة الأولى، تمد له القنينة، ليصب لنفسه المقدار الذي يحبه، تبتسم مداعبة: نحن هنا بخير .. أليس كذلك؟

يدفع ما في الكأس الأول إلى جوفه: الحب تجربة مروعة، كيف وقعنا بسهولة؟

تنظر إلى السقف، وهي تراقب بحذر فراشة ليلية يُغريها الضوء الأصفر المغموس في بياض ناعم: كنا كطفلين، الأطفال وحدهم مَن يملكون الخيال الكافي للعب الغميضة في أزقة تحرسها الأشباح. لم أندم على ذلك، وأنت؟

تتحـرك عضلة ثانية في وجهه، يرد في ثقة: الحب ليس فيه أشرار، لكنه غـوص في الـتراب، وعمق الأرض.. للأسـف نقف عـلى أرض صخرية بركانية صلبة وقلبها يلتهب .. أظن أننا نبذل ما بوسعنا ونجتهد، ليعيش حبنا، فلماذا تفكرين في المغادرة؟

تُشـعل سـيجارتها، يتصاعـد الدخـان إلى الأعلى تتابـع الحركة، وهي تنفـث وتنفث كطفلة شـقية تمازح فراشـة السـقف. يسـقط رأسـها على صدرها، يقترب منها، يرفعه برفق، ترتمي في أحضانه.

2

تبتسم، رغم أن قطرات الدموع تخضب خديها، تنظر إليه، تهز رأسها: أنت كمن يبدو ولدت، وفي يدك ورقة وقلم، لتكتب خيالات العالم في قصيدة.. أما أنا فقد وُلدتُ وفي يدي سكينة بلاستيكية، كي أقطع بها جدران الضباب التي تسجنني، ولدت صامتة أنتظر ضجيج أغنية تجعلني أفتح عينيّ.. رد، وهو يقترب خطوة نحوها:-

ليتني أمتلك ذراع عوج بن عنق، كنت سأقطف لك الضوء من السماء الثانية، يرتجف قلبي، رغم المعطف الأبيض الثقيل الذي ألبسه، ونحن في شهر مايو .. الجو يتحسن إلى الأفضل تتفقين معي؟

هي حافية القدمين، تبدو مستمتعة بتهويدة الموج المالح يعزف بتمهل قبل الغروب حيث الشمس تسكب زبدة الألوان وتنصرف. هو يقف معها، بينهما عدة خطوات لا أكثر، لكن جدراناً من الشك تزيد صلابتها، لا يعرفان من بنى كل هذا وكيف؟

قالت له : القبلة الأولى هي القبلة الحقيقية التي لا تزول من الذاكرة، والليلة الأولى تظل خالدة لا تنسى. فعلناها بشجاعة، لا يمكن أن تنزوي تلك الذكريات في القاع المظلم.

ثم تخطو عدة خطوات باتجاه الشمس، والتي بدت قرصاً مسالماً. الليل ينتظر، ويدق أبوابه بلطف ورقة.

هنـا يظل يلاحظ ردة فعل الموج، يغسـل قدميهـا بنعومة، يرافقها كلما دخلـت خطوتين إلى العمق يكون جـزراً، وكلما اتجهت نحو الرمل يكون مـداً. يحدقـان لمتابعة نبتة رمتهـا الريح في قلب الموج، تظـل تتأرجح، ولا تبدي خوفها من الغرق، أو الانجراف إلى البعيد.

نظـرت إلى عينيـه وقالـت: عيناك شـدتني بجمالها مـن اللحظة الأولى ..تعلم ذلك؟

تقـدم خطوة باتجاه النبتة، كأنه يريـد أن ينقذها : أظن أنَّ قلبها لا يزال ينبض ربما أخطات الريح، وهي تجتثها من أصلها. أحسّ أنها تشـبهني، رماني الهوى، كما تقول الأغنية كي أغرق فيك.

العشـاق كالجنود قد يذوبون بأكملهم، وتبقى فقـط القلائد المعدنية. قالت العبارة كأنها تبحث عن جملة أنيقة لنهاية الحوار.

3

بمـرارة يحـاول أن يعيدهـا عن قـرار الفـراق، يتلعثم، وهـو ينظر إلى صـورة صغـيرة لها على الجدار. بلـع ريقه : لن أكرهك أبداً، سـأكره هذه اللحظـة التي تخطـو خطواتك بعيـداً.. صورتـك المعلقة هنا لـن تجعلني أحسُّ بلحظات فراقك لليلة، أو ليلتين، ولكن ماذا سأفعل بعد ذلك؟

هـي أيضـاً لم تكن سـعيدة تمامـاً، تحـاول التظاهر بأنها امـرأة صلبة في موقـف يصعب عـلى الجميع. تتنهد رغم محاولاتها إخفاء هذا الشـعور في مثل هذه اللحظات:

أنت لسـت طفلاً. نعم، غيرت في حياتي أشياء كثيرة، وسوف أحاول نسـيانها. التقينا ذات خريف بارد وعاصف، فكان أجمل ربيع عشـناه، كنا نظن أن الله خلقنا الواحد من أجل الآخر .. لكن خلاص، لنطو الصفحة بشجاعة..

هنالـك وداعـات نضطـر إليها تكـون فراقـاً مؤلمـاً، وتكـون المغادرة بوخزات رماح الموت الذي يتلذذ بنا، ولا يجعل الروح تذهب في سلام.

كانت أول خطوة لها إلى الباب بكعبها العالي ثقيلة، كأنها تخطو وسـط حقل ألغام. ظنها للحظة ستتراجع مسرعة نحو أحضانه، لكنها لم تتراجع هـذه المـرة، جمعت كل قواها، نظـرت نظرة وداع كأنها تـترك وطناً خرباً. كل شيء كان جافاً وسـاكناً. تحركت هـذه المرة بسرعة دون أن تلتفت إلى الوراء.

المـكان أصبح خالياً من دونها. هو ظـل دون ردة فعل، يعجز عن فهم الشـعور الداخـلي الـذي ينتابه اللحظـة، تتدخـل الريح لتحرك المشـهد، وترسم نهايته بركلها النافذة، يسقط إطار الصورة المعلقة على الجدار .

رغـوة
1

يتقـدم عدة خطـوات نحو المـرآة رافعاً ذقنه، يمسـك شـفرة الحلاقة، يشعر بشخص ما يضغط على رأسه إلى الأسفل، يعود ليرفع رأسه، تفشل المحاولة الأولى، يُكررُ الفعل، يترك شفرة الحلاقة، يعبث برغوة الصابون، تتدفق الرغوة بشكل عجيب، ينظر إلى المرآة، يلتفت حوله، لا شيء سوى الصمت.

ينظـر حوله، يتضخـم الصمت، ينكمش الضوء، يرفع يده بالشـفرة، لا تصل إلى ذقنه، الصمتُ يخترقُ المرآة، يزداد تدفق الرغوة، يفتح صنبور الماء ليذيبها، لا ينزل الماء ربما بسبب عطل ما، يُغطي البياض المكان، يزداد الضغط فوق رأسه إلى الأسفل، ينغمس رأسه كاملاً في بياض الرغوة.

2

لا تظهر ملامح الوجوه، ولا تفاصيل الأجساد في اللوحة المعلقة على الجدار. يُطيل النظر فيها، ويدنو منها كثيراً. خارج المكان تتبعثرُ أصوات عدة تمتزج ببعضها، ضجيج عودة الأطفال من المدارس، وضجيج السيارات مع نهاية مواعيد العمل. يُرسل الأطفال فقاقيع الصابون الملون إلى السماء، تحاول الطبيعة أن تُثبت حضورها أيضاً، حفيف الأغصان وصراخات النوارس والعصافير بسبب شجارات تحدث دوماً على فتات الخبز الذي يُلقي به بعض السكان من نوافذهم، يُغلق النوافذ محاولاً جمع القليل من شظايا الصمت، لينعم بلحظة تأمل.

يُثقله الضجر، تموت فكرة لمعت في عقله قبل ثوان عديدة، يجد نفسه تائهاً بين جدران هذا البيت.

العينان تحدقان في اللوحة، يُحرك يديه ليزيح الهواء، يفقد الرؤية تماماً، يُظلم كل شيء، تتدفق رغوة الظلمة، يتلمس الفراغ المحيط به لعله يجدُ مقبض النافذة، يحاول الصراخ، حشرجة في حنجرته، قطعة ثلج مربعة تخرج من فمه مع رغوة رمادية تتدفق بشكل يبعث على الرعب، يختفي الضجيج، تختفي اللوحة بعدما ركلت الريح النافذة.

3

لم تعد هنا أشجار شاهقة، منذ أن تم تقليم الأشجار قبل الشتاء الماضي. لم تنمُ أذرع الأشـجار، رغم قدوم الربيع، وهاهو الصيف يطرق الأبواب بشـمس واهنة. ظلت الأشـجار نحيفة والظلال هزيلة، من شرفتي أنفث دخـان سـيجارتي محاولاً سـد ثقـب في بطن السـماء، حدث الثقـب فجأة بسبب رصاصات طائشة.

أحيانـاً يصعـبُ تجميـل الأشـياء المثقوبـة، الأصعب من ذلـك ترميم الأرواح وإعادة تذكر قصيدة منسـية، ورسـم وجه حبيبـة غادرت بعيداً. ثمة أشياء لا يمكن استبدالها كالوطن والأم والقبلة الأولى.

ظـل يحاول أن ينتزع نفسـه من الظلمـة المحيطة به والأريكـة القديمة التي لم تعد مريحة، على الطاولة الكثير من علب الألوان وأدوات الرسـم. التحدي الكبير اللمسة الأولى، كقبلة يضعها في صدر العشيقة.

يفكرُ برسـم وجوه وجبال وحقول، لكن الحرب هناك بوسعها تدمير كل هذا بضربة خفيفة، سيسـقطُ الجبـل وتتبعثر الوجوه، وتصبح الحقول رماداً لا نفع فيه. يشـعر أن فمه فم ميت، تفـوح منه روائح الموت، ويكبرُ صوت اليرقات والدود، والذي يدعو بعضه بعضا لوليمة العشاء.

تتدفـق رغـوة الظلمـة، ولم يأت الـزوار، ولم تطرق الحبيبـة الباب عند السابعة. تظل قنينة النبيذ قرب قصعات الألوان لم تتحرك.

ليخرج من كل هذه الخيالات، فتح النافذة، يحدق في الخارج، الأشجار التي لم تعد شـاهقة تحاول القفز، تحـاول الركض، لكن شريطاً أحمر وضع حولها، حالة طوارىء وأوامر صارمة تمنع القفز والركض .

الثوري

يسميه رفاقه الثوري اليمني، أو الثوري الوحدوي. يحترق قلبه لما آلت إليه أوضاع الناس في اليمن الحزين. تم إغلاق حسابه على فيسبوك عدة مرات، بسبب بلاغات كاذبة، يصف نفسه بالمستقل، رفض منصباً مهماً في مدينته التي تسيطر عليها جماعة الحوثي، كما رفض عرضاً للذهاب إلى عدن للعمل مع منظمة تعارض الجماعة، يعيش بمدينته التهامية الموجوعة بكل أصناف الألم والحرمان.

من حين إلى آخر تظهر دعوات تنادي بإقليم تهامة واستقلاله، وإعطاء الناس حقوقها المدنية والمواطنة الكاملة التي حرموا منها، منذ العهد الإمامي ، ثم الجمهوري. في المقيل مع رفاقه يعبرعن هذا الاحتراق والغيظ : كنا نردد نشيد (سجل مكانك في التاريخ يا قلم) للشاعر محمد محمود الزبيري. أتعلمون هذا للشاعر الذي قدسناه صغاراً وشباباً، قال للوفد التهامي الذي ذهب يطالب ببعض الحقوق، قالها بوضوح وصراحة «منكم العيش ومنا الجيش» لقد سمعتها من فم المناضل الشيخ عبدالله مهدي عبده، وهذه العبارة أصبحت قانوناً، وقاعدة في ظل كل الحكومات اليمنية، ثم ثرنا وشاركنا في الثورة، وظلت القاعدة مطبقة كأنها قدرنا الأبدي، وحتى جماعة الحوثي تنظر إلى تهامة الموارد، والمكوس والإتاوات. كلهم سواسية في الظلم والقهر.

يتصاعد الدخان بشكل كثيف من صدور هؤلاء الشبان وسجائرهم

التـي يتقاسـمونها، وتتصبب أجسـادهم عرقاً في غرفة صغـيرة خالية من الفخامـة وزينـة الحياة. يتحسسـون أعواد القـات القليلة بـين أصابعهم. أغلبهم من المعلمين، وخريجي الجامعات، لكنهم جميعاً بلا رواتب.

يثـور النقـاش في المقيـل الصغـير، يـرد أحدهـم : نحـن لم نتحد ضد ظالمينـا. يتداخل آخـر : نحن نخذل مناضلينا، والله لـو تثور، أو تعارض ستجد أهل تهامة أول من يتخلى عنك، نحن نطعن بعضنا بعض.

يحـاول أن يسـيطر عـلى النقـاش، ولم يكن قد أكمـل أفـكاره : الظلم عام وشـامل ..انظروا الظلم الذي ينـال مناطق غيرنا في ريمة، ووصاب، وعـدن وغيرهـا.. حتى أهل صنعاء، أو تعـز، أو مأرب، وصعدة يعانون التخلـف والعزلـة، فقط الحاشـية، وشـلة النفـاق هي من اسـتفادت من الإمامة والجمهورية، وحتى الحرب ..هم أقل من واحد في الألف هم مَن يستفيدون ويحكمون ويجمعون الثروات.

تتعالى التعليقات : يأتون من فوق منهم فقط المدراء، وإحنا لا منا وزير، ولا سفير ولا حتى نائب مدير ... كل شيء حقهم، كما قال الشاعر عبدالله المحفلي (العسـل عندنا والبصـل عندكم، البصل أكلنا والعسـل أكلكم، التجـارة عندنا والكـراسي لكم، والعقارات لنـا والضرائب لكم والبحار حقنـا والجمارك لكم، كل شيء عندنا عائداته لكم). يعلق شـخص آخر: رحم الله الشـاعر الزبيدي حسـين غالب العلي عبّر عن المأسـاة التهامية في قصيدة «أنا من بلاد تسمى تهامة».

يـصرخ صديـق ظـل صامتاً طيلـة النقـاش : ياشـباب شـوفوا تجارنا

ومشـايخنا أغلبهم يظلمـون أهلهم هنا، ويبيعون البـلاد لأصحاب فوق، وهناك من يكونون في صنعاء تجدهم كرماء متواضعين يُضرب بهم المثل، وهم كلاب مسعورة.

طال النقاش على غير عادته في الليالي السـابقة، واشـتعل الحماس كأنها ليلة ميلاد ثورة تحررية.

تشـعبت النقاشات، ووجه بعضهم إليه انتقادات لاذعة، نعته أحدهم بالجبان المنافق الذي يهرب من قضيته الأولى، وصرخ : يجب أن تعاد للناس كرامتهـم، يكفـي عبودية، تهامة واسـتقلا لها أولاً، والثـورة ضد الجميع. حـاول الثـوري أن يشرح وجهة نظـره، والبعد عن المناطقيـة الضيقة. هو يرى ضرورة أن تنتهي هذه الحرب القذرة ثم تكون مصالحة وطنية تتحقق فيها مبادئ المواطنة والعدالة.

نهـض الثوري، ليغادر إلى عمله في ورشـة النجارة. أبدى تسـامحه مع الذيـن اختلفوا معه. المكان يعج بالفوضى والتوتـر، وكذلك حرقة قاتلة وعجز مخجل، وواقع مشـحون بالمأساة، حيث غالبية المعلمين والموظفين اضطـروا لتعلم مهن، كي يعيشـوا منذ انقطعت رواتبهـم، وأصبح منهم الشـيال، وبائـع الخبـز، والماء وعمال البنـاء، ولم يعد أحد يسـتحي من أي عمل، لتوفير القليل من الاحتياجات للبقاء على قيد الحياة.

خلال سـيره إلى عمله كان مشـغول البال، يفكـر في كتابة مقالة ثورية يُعـبر عـن كل المظلومين في اليمن السـجين. يعتقد أن الظلـم أصبح عاماً

وشـاملاً، وأن العالم كله يتمادى في الصمت على الباطل. منذ ثماني سنوات عجلة الموت والجوع والمرض تفتك بالجميع.

في الورشـة طلـب منـه صاحـب الورشـة أن يقـوم بقطـع العديد من الألواح الخشـبية على ماكينة القطع، التي لم يسـبق له اسـتخدامها وحده، فهو مجرد مسـاعد للنجار الذي تغيب الليلة بسبب مرضه. كانت أصابعه كأنها تعزف على كلمات المقالة، يكاد يشـعر بكل عبارة تجمعت في رأسـه. عمل النجارة يحتاج تركيزاً ذهنياً، والعمل على هذه الماكينة يحتاج إلى خبرة ومهارة وحذر، لكنه خاف أن يفقد عمله.

لم يسـتطع الاعتـذار، وبـدأ بالعمل بربع عقـل. تركيزه، وأحاسيسـه كانت المقالة التي ظن أنها قد تسنهض الضمير الإنساني الكسول.

نجـح في قطع اللوح الخشـبي الأول، وبـدأ في اللوح الثـاني،لا يعرف أحد ماذا حدث في تلك الورشة فقد كان وحده يعمل، هل أكلت الماكينة أصابعه العشر؟

فقـد الوعي تمامـاً، ولا يدري كم من الزمن مـضى عليه .. ثم يفيق في مـكان مظلـم وبارد، بلا أصابع ولا لسـان، كأنه في قلـب العدم، يفكر أن يتحسـس رأسـه ويطمئن، ويضغط عليه بسـاعديه، لكنه يخاف ألا يكون الرأس في مكانه، لا يكون إلا الفراغ..

يوم عيد الموتى

غداً يوم عيد الموتى، يوم ابتدعه الخيال الشعبي، وأصبح تقليداً مهماً، حتى للذين ليست لهم قناعات إيمانية عميقة بالغيبيات. ستستيقظ المدينة بأكملها باكراً قبل الشروق، يغتسل الرجال والأطفال والنساء، يذهبون إلى الصلاة، وهم ينتظرون شروقاً مهماً متمنين أن يكون الطقس جيداً ليوم طويل، وطقوس خاصة ومتنوعة.

أنا هنا، ولست هناك، يحرمني البعد أن أزور قبر أبي، أن أصب إبريقاً من الماء فوق نبتة الصبار التي يكبر ظلها يوماً بعد يوم، تابعت صباح جنازته عبر الفيديوهات المرسلة عبر واتساب، لحظة بلحظة، نهض الرجال وأغلقوا دكاكينهم، شاركوا في الدفن، وهم يذكرون اسمي، وأسماء أخواني، وكانوا في حالة ذهول يترحمون عليه، بعد نهاية المراسم عاد الجميع إلى حياتهم، وبقي هو وحده.

في صباح يوم الموتى الهواء الطلق والنسيم العليل كأنه يُبشر بحياة أفضل. تنبضُ الحياة بحيوية في كل الأشياء، النباتات الصغيرة التي تنمو بشكل عشوائي داخل المقابر والعصافير تقف فوق الجدران وأعمدة الضوء القريبة تتلو ما تيسر من الصلوات، تبدو الأرواح كأنها هي تحلق أيضاً.

يتبادل الناس الحكايات والطرائف عن موتاهم. النساء تعد أكلهم

المحبب بمهارة مع الكثير من التوابل والمعطرات، تُدهن جدران القبور بمادة الجير الأبيض، وتُسقى النبتات، وحتى الأشواك ترتوي في هذا اليوم. لا يجوز قطعها، ولا تركها جافة.

الأطفال أكثر فرحة في هذا اليوم رغم ما يسببه اسم الموت من ذُعر وخصوصاً أولئك الذين فقدوا آباءهم، أو أمهاتهم، لكنه يوم المشروبات السكرية والحلوى الملونة وعند الغروب يُطلقون نحو السماء بالونات بيضاء، ذلك المشهد المنتظر، حيث تتعانق الألوان والرؤوس والعيون تحدق فيها.

يكون يوماً كرنفالياً تشبع فيه البطون والجوعى. تكون الذبائح والصدقات، الأهازيج الدينية والصلوات والبخور والقهوة المرّة .

البعيدون أمثالي يشعرون بقسوة الغربة في مثل هذا اليوم، حيث يُستحسن لبس ملابس بيضاء ناعمة بنعومة الأكفان وبريقها، يوم تسامح وعفو، وللأولياء الصالحين والشهداء نصيب من الدعاء والهدايا، حيث يفي أصحاب النذور بنذورهم، حتى الأماكن التي كانت خربة تمتلئ بالحياة. لكل قرية سقيفتها، ولكل ضريح موعده على مدار اليوم إلى الهجيع الأخير من الليل يوجد برنامج ثري ومشوق.

تختلط الطقوس الكهنوتية مع الدينية، وبعض البدع الحديثة والعصرية. كل عام تكون هناك عادة جديدة، ثم تصبح العام التالي عادة قديمة مثلاً إطعام الكلاب والقطط الضالة والغربان وأشياء تشبه عيد هالوين.

ثماني سـنوات من الحرب والخراب جعلت الموت معاشـاً في كل بيت. كان الناس يخشـون الموت المفاجىء دون إنذارات مسبقة كالسكتة القلبية وغيرهـا، لكن هذا النـوع من الموت أصبح مسـتحباً، كأنه رصاصة رحمة دون ألم ولا وجـع، الفجيعة الحقيقية التي يسـتعيذ النـاس منها هي الموت بالتقسيط المؤلم.

أسـمع تنهيدتها، وهي تضع باقة من الورود على قبري، وتضع كرت معايدة ملون كتبت فيه «نم بسلام حتى هذا العام فاتك العيد هناك»

تُطلـق بالونـة بيضـاء في سـماء مثخنـة بالضبـاب والريح تعـزف نعياً فوضوياً لكل الموتى.

جنازتي

أظنهـا طقوس جنازتي! الكثير من الغرابـة. كل هذه الوجوه الحاضرة لم أعرفهـا ..لكن لمـاذا يلبـس الجميع هذه الأقنعـة الغريبـة والملونة؟ أين أصدقائي الذين أعرفهم وأهلي؟

يبـدو الطقـس ضبابياً نوعاً ما والرؤية ليسـت بوضوح مثالي، الأرض التي سأُدفن فيها. . لا أشعر أني زرتها قبل.

حسـناً أنا في تابوت خشـبي، لا أدري بالضبط الملابـس التي أرتديها، أظنها شـتوية، أشـعر بدفء المعطف الشتوي، وحتى وجود وشاح يلتف على عنقي، ليسـت من عاداتي أن أضع وشاحاً إلا في الأيام القارسة البرد. مـن ذلـك بمكن أن أسـتنتج.. تاريخ الوفـاة ذات شـتاء.. لا أدري في أية سـاعة بالضبـط ، ولا أسـباب الوفاة .. ربـما يجب الانتظـار لحين صدور تقرير الطب الشرعي، أو زيارة من قريب يحكي لي كل التفاصيل.

التصيـب و لم أتوقـع أن يكون مـوتي غامضاً ، وتكـون الطقوس بهذه الطريقة، لا أسـمع عويلاً ولا تنهيدات، لا أسـمع أي شاعر يرثيني، ولو بقصيـدة صغـيرة لا تهمني الزخرفـات البلاغيـة والبديعيـة، ولم أكن من أنصـار صناعـة وتقليد الإبداع وترويجه كسـلعة أو وسـيلة تملق. أسـمع صوت أجراس من بعيد، ربما هي لجنازة أخرى، وليست لي .

أتوقع أن ثمة عاصفة الآن أو هي قادمة لا محالة، ترقص فوق الصخور وتركـض عـلى مياة البحـيرة التي فقـدت زرقتها، ثمة أغصان وأعشـاب

وقناني الجعة والنبيذ تبدو طافية فوق السطح كأني في أجواء أفلام أندرية تاركوفسكي، مجنون يدخن ويشعل شمعة، يتسلى بتحريك مقود سيارة قديمة معطلة، نوارس لا تأبه بما يحدث في الأسفل، تحلق رغم ما أصابها من إجهاد، لكنها على الأقل تملك خارطة .

ربما جاء موتي وأنا أغط في النوم وربما بعد أن شربت بعض الكؤوس، أسأل نفسي: ما هي البروتوكولات المهمة التي يجب أن يتبعها الميت؟

قرأت وكتبت كثيراً عن الموت، لا أدري هل سأستفيد من تلك الخبرات؟

ينطفىء صوتي رويداً رويداً أفقد الذكريات. أكاد لا أتذكر اسمي وتاريخ ميلادي ومهنتي وهواياتي وتجاربي العاطفية، لكني أحاول جاهداً أن أشم عطر الأمكنة؛ البيت والجامعة والشوارع والحانات والبحر، وربما ثمة غابة ماتزال مخضرة ومدينتي بكل حواريها وأزقتها.. سأجتهد من خلال حاسة الشم لعل وعسى... أفهم ما يحدث هنا.

حكاية نور

انتهت الحضارات، وعم الخراب كل أرجاء الأرض. اندثرت كل الأديان، وهُدمت المعابد والكنائس والمساجد. احترقت كل الكتب، وعم الفساد، واستولى الشر والأشرار على العالم. اختفت الآلهة والملائكة، وحكم الكون الشياطين. لا يعلم أغلب الناس بيوم القيامة كي ينتظروه، لتنتهي عذاباتهم المريرة، ولم يعد يعرف ما يعني يوم القيامة إلا عدد قليل من البشر، وهم يعيشون في كهوف بعيدة، وهنا كانت نشأة نور الفتاة اليتيمة. وجدها الرجل الطيب ورباها تربية الفتيان، علمها اللعب بالسيوف والرماح، وكل أنواع القتال. كان الرجل الطيب مع ثلة قليلة تعرف جزءاً من حكاية هذا العالم، وإنه توجد آلهة قديمة اختفت، وتركت الإنسان لشره .

المدن والقرى القليلة النائية التي نجت من الخراب أصبحت تعيش حياة بدائية متخلفة بعد اندثار التكنولوجيا، ويقال إن هذا حصل بسبب حرب عالمية استخدمت فيها كل أنواع الأسلحة الفتاكة والبشعة، فحدث الخراب الشنيع الذي طال العواصم والمدن الكبيرة، فمُحيت من الوجود ومات مليارات البشر، ثم حدثت زلازل، وثارت البراكين، وعم الحريق. نجت القرى والمدن الصغيرة النائية التي لم تكن على الخرائط، ولم

يكـن أحد يهتم لوجودها، والتـي لم تصلها الحضـارة المتفوقة، ولا التقدم التكنولوجـي ، لكن الأشرار اسـتولوا عليها، واسـتعبدوا أهلها، فعادت تجارة العبودية والرقيق والسخرة .

كان الطيـب مـع مجموعة قليلـة يقتاتون عـلى التقاط الثـمار والأوراق والفطريات التي تنبت بشـكل طبيعي، وعدة دجاجات وقطيع صغير من الماعـز، عندما حدث الخراب طال كل شيء الحيوانات والطبيعة، فأصبح كل شيء ملوثـاً وسـاماً، ومع مرور خمسـة قـرون بدأت الطبيعة تسـتعيد عافيتها قليلاً، وتجود ببعض الحياة.

لم يكـن الطيـب يمتلـك أي كتـب سـماوية، فقط بعـض القصاصات مـن النصـوص الشـعرية والنثرية، وبسـبب تـوارث هـذه القصاصات، ونقلهـا عـدة مـرات حدث الكثـير من التشـويه والخلـط، وإضافات من خيـال الناقلـين، وربـما أمانيهـم وأحلامهم، لكـن الخيال الإنسـاني يبدو منـذ الخليقـة إلى الاندثـار سـيظل يعمق فكـرة المنقـذ، ويكـون الأمل في الانتظـار، فكرة الأمـل المنتظر والبحث عنـه، بعد موت وفنـاء الثقافات والأسـاطير والتاريخ. يبدو أن أسـطورة صغيرة ولـدت، لتكبر قليلاً مع الأيام والسنين والقرون. كانت مجموعة الطيب، وعدة مجموعات صغيرة تبحـث في أعالي الجبال المنعزلـة التي فيها القليل جداً من مقومات الحياة، يبحثون عن شخصية أسطورية تسمى النبي المعلم والبطل. يحكي الطيب لنور، ويخبرها إن الله بعد حدوث الكارثة أرسـل إلى الأرض معلماً نصفه بـشري، ونصفه نوراني سـماوي، وزوده بقوة، وعلمه الكلام والحكايات،

لكـن الأشرار والسـحرة قبضـوا عليـه، وسـجنوه في كهـف مظلـم، ولا يعرف بقصة المعلم إلا القليل من الناس الذين يسـمون أنفسـهم التلاميذ المخلصين، ومنذ خمسـة قرون، والبحث مايزال مسـتمراً، كلما مات جيل يورث عملية البحث للجيل الذي بعده، بسبب قوة الشر وعنفه تعرضت الكثير من مجموعات التلاميذ للإبادة التامة، وحرق كل موروثها.

كان معظـم حـكام المـدن مـن السـحرة الأشرار، تحـدث الكثـير مـن الحروب بينهم، لكن فكرة ظهور المعلم المنقذ ترعبهم جداً، لذلك يحدث تنسـيق كبير، لمتابعة أي شـخص ينطق ولـو بكلمة واحـدة عنه، وكانت الشياطين تمد هؤلاء بأي معلومة عن المؤمنين بالمعلم .

اسـتقت نـور الكثير مـن الأفكار حـول المعلم، وحاولـت عبر طريقة التأمـل والتحليـل أن تنقح بعضاً مما سـمعته شـفهياً، حيث حدث بعض الخلـط لدى الـرواة بخلط الوثنـي بالسـماوي والخيال الشـعبي. يتوارث التلاميـذ ناياً خشـبياً غريباً، يقـال إن قوى شريرة حولـت المعلم إلى تمثال خشـبي، ودفنته في كهف عميق، لكنه مد يده التي تمسـك الناي الصغير، فسـقط هـذا النـاي أسـفل الجبل. يكـرس التلاميـذ حياتهـم للبحث بين الحشـائش والشـجيرات المتسـلقة مغارات وكهوف الجبـال، بحثاً عن يد المعلـم التي اخترقـت الصخور، وبمجـرد أن يتم وضع النـاي في أصابع المعلم ستعود له روحه وجسده الإنساني حرص الطيب على إخفاء الناي، كونـه الأمل الوحيد، لذلك وضعه كقلادة في عنق نور، عندما أحس فيها الذكاء والفطنه والخير.

لم تولد حضارة بعد اندثار الحضارات، وبنى الحكام لأنفسهم قلاعاً حصينة، حيث يقضون حياتهم العبثية في المتعة والجنس، وتناول المخدرات، هم والمقربون منهم. حياة الناس كانت قاسية وفوضوية، فلا أديان، ولا آلهة، ولا حياة كريمة، حتى اللغة ولدت لغات جديدة بكلمات محدودة وقليلة، فلا يستطيع أي إنسان التعبير عما في داخله بالكلام، لا يوجد أي نوع من أنواع الكتابة يعرفها العامة، استعاض الناس بفن الإشارات اليدوية للتفاهم. ما يشبه حالات الطوارىء ظل سارياً، فلا أسواق ولا تجول بعد غروب الشمس. يعود الناس إلى أكواخهم الجماعية البائسة التي تشبه حظائر الخنازير القذرة، يقضون ليلهم في ظلمة معتمة إلى ما بعد الشروق.

سادت الوحشية والسادية، حياة بهيمية قاسية، وعم الجهل والضياع، فلا إله ولا صلاة. قسوة عامة لم يسبق أن عرفها بنو البشر ، وفي جبل ناءٍ وبعيد تقضي نور وقتها في تسلق الأشجار الضخمة والبقاء في التأمل. تداعب الناي وتتخوف النفخ فيه. ذات مساء كانت تنظر إلى السماء، وما بقي من حياة متعبة على هذه الأرض، خيم الصمت والسكون التام، ولم تكن تتصور أن شيئاً خطيراً حدث هذه الليلة، حيث وصل خبر هذه المجموعة إلى أحد الحكام السحرة، فأرسل أعوانه لتمشيط المنطقة والكهوف والمغارات، وفعلاً وجدوا مجموعة الطيب وقتلوهم جميعاً، ثم أحرقوا كل شيء. كانت نور بعيدة فوق شجرة ضخمة على قمة الجبل، الطريق إليها شديد الوعورة والصعوبة، المنحدرات خطرة،

لكنهـا أجادت الوصول إليهـا بخفة ومهارة. كانت ليلـة مقمرة وبديعة، النسـيم العليل والصفاء يبعث الطمأنينة، لم تكن تتصور أنها ستكون ليلة بشـعة. عادت في الصبـاح الباكر، كانت بعض الغنـمات تتجول تائهة بلا راعٍ. مشـت بحذر شديد وهدوء. ثمة إحسـاس بالخطر كان يرافقها منذ مولِدهـا، تعدت مرحلة الطفولة، وأصبحـت فتاة ناضجة ومختلفة، ظنت أن هذا الجبل سيعصمهم من البشاعة والألم إلى أن يظهر المنقذ الخارق.

مع وصولها المكان أصيبت بالصعقة لبشاعة ما حدث، ظلت متجمدة، بكـت بحرقة حتـى بللت الصخر المحـترق. كانت ذكية بما فيـه الكفاية، لتحليـل الموقـف، ومعرفة الحـل للنجاة، وهو العـودة إلى الأعلى، إلى قمة الجبـل. هـذه المرة لـن تكون إقامـة تأمل وتفكـير. إنه الهـروب من الموت البشع، وفعلاً عادت سريعاً، وبقيت أياماً عدة تناجي السماء، وتسألها عن الحلول، وأين هذا النبي المنقذ؟

رغم كثرة تضحيات الذين يؤمنون بالسـماء والله إلا أن السـاعة لم تحن بعد لخروجه. لم تفهم سـبب التأخر الكبـير، لكنها ظلت مخلصة ومؤمنة، حملت معها بعض القصاصات المنسوخة، والتي حفظتها عن ظهر قلب.

الحياة في التجمعات البشرية لا ترقى إلى تسـميتها مدنية. يُحشر الناس البسـطاء في أكواخ عند الغروب إلى الشروق. لم يكن هناك نظام اجتماعي كالـزواج والأسرة والنسـب. كان الجنـس مشـاعاً وفوضويـاً. لا توجـد ملكية فردية، حتى جسـد الإنسـان فهو ملك للطبقـة الحاكمة وأعوانهم. يولد الأطفال بلا أسـماء، وأغلبهم يموت بسـبب كثرة الأمراض المتفشية

والجـوع وضعـف الأمهات. العنف وقسـوة الحكام والجنـود ينصب على النـاس نهـاراً، وهم يعملـون من أجل الأسـياد، في هذه الأكـواخ المعدمة يكـون أيضاً الليـل عنيفاً وقاتـلاً، ولا مكانـة للضعيف في الحيـاة، حاجة وشـبق الرجـل الجنـسي والذي يحـدث جماعياً جعـل العنف ضد النسـاء مضاعفاً وشنيعاً.

في ظل حياة مظلمة، وكون يسـوده الظلم، تُقرر نور البحث بجد عن المخلص. تبدأ العزف على الناي، تطلب النجاة. مضت للبحث عن النبي في كل زاوية من الجبال التي تعرفها جيداً.

بعـد شـهور من حياة قاسـية، وبحث مسـتمر حصلـت المعجزة ذات صباح، ومن أول خطوة بحث، وجدت اليد، تسـمرت في مكانها. لم يكن هنـاك أي نـص، أو تعويذة لتنهـض روحه. وضعت النـاي منتظرة لحظة خالدة، حدثت المعجزة فعلاً أمام عينيها، انفلقت الصخور، وظهر جسد النبي، ثم دبت فيه الروح، فأصبح بشراً سوياً.

كان عارياً، بدت تفاصيل جسـده الذكورية. نور أصبحت فتاة شابة، بـل امـرأة كاملة ولم تعد تلـك الطفلة. سرعـان ما منحته جـزءاً من ثوبها العلوي تاركة صدرها عارياً. لم يكن التعري عيباً، كان أمراً عادياً ومألوفاً جداً لا يثير الانتباه. يسـير الناس عراة أو شـبه عـراة، كان بعضهم يلبس ثياباً خفيفة وبسيطة، لتغطية جزء من العورة .

في أول لحظـات عـودة البطـل المنتظـر، ظـل صامتاً، ويبـدو أنه نهض جائعـاً، فهمـت نور أنـه بحاجة إلى أكل وشرب، جمعـت له بعض الأكل

وسـقته، ثم أخذته إلى حفرة ماء ليغتسـل. مضت سـاعات وأيام دون أن ينطـق بكلمة واحدة، لم تدر كيف يمكن خلـق لغة بينهما؟ ظنت أنه النبي البطل الخارق المنتظر سـيفهم لغتها البسـيطة، وأن الله اختاره لهذه المهمة، وعلمه الكلام، وأودع فيه كل صفات الذكاء.

بدت مهمتها صعبة وكبيرة، لكنها ذات موهبة وفطنة تؤهلها لهذا الدور الصعب. علمته الكلام الذي تعرفه، وأسماء بعض الأشياء وعانت كثيراً، لأنه بطـيء الفهم والتعلم، يجوع بسرعة، ويـأكل بنهم حيواني. ذات مرة وهما يلتقطان بعض الأوراق والثمار شـاهد أرنباً وأرنبة يمارسان التزاوج، نهض عضوه التناسلي، كانت نور جميلة وفاتنة، تملك جسداً مغرياً. كانت تغتسل معه عارية، بحكم مشاهداتها للمجموعة التي كانت تعيش معها، فقد شاهدت الممارسة الجنسية بكل أنواعها فالمجموعة أيضاً كانت تعيش حياة بهيمية والجنس مشاع، لكن خوفها أن تحبل وتتحمل مسؤولية نفس صغـيرة، لذلك فكرت بطريقة عملية، فربما يكون الجنس وسـيلة لتسريع تعليمه. أشـبعت لذاته بالجنس الفموي وباليد، وأشـياء أخرى، ولم يكن هو يعلم بطرق الممارسة. فعلاً أصبح الرجل أكثر تفتحاً نوعاً ما، ويتعلم بسرعـة أفضل، وينجـح بدرجة متوسـط في الاختبارات التـي تنظمها له باستمرار.

كاد الشـك يتـسرب إليهـا، فلا توجد فيـه أي مميزات خارقة، ونسـبة الـذكاء ربما أقل من متوسـطة. مرت الأيـام والفصول، مع قـدوم الربيع وتحسّـن الجـو، بـدأت تعلمه بعض مهـارات القتـال والرياضة، وتسـلق

الجبال والسباحة. لاحظت أن الربيع مختلف، وأكثر حياة. بدأت الأعشاب والنباتات تنمو وكذلك الأزهار. أدركت أنها ببركة هذا النبي.

أظهرت نور الكثير من الذكاء والحنكة في تعليم المنقذ المنتظر، والذي أخذ منها شهوراً طويلة، بين الشك والواقع ثارت تساؤلات كثيرة منها: هل نهوض حياة الطبيعة كان ببركة هذا المخلوق الذي كان تمثالاً مدفوناً علته العفونة والحشائش الضارة، أم بداية لتعافي الطبيعة بعد قرون من المرض والقحط ؟

ظهور نبي، أو بطل، أو معلم تعني على الأقل وجود كلمة ولغة وخطاب.. هو لا يملك أي مهارة، ولا فكر، وهي من علمته بعض المهارات. بدأت تقضي وقتاً كبيراً في العزف، وتعليمه كيف يستخدم الناي، ثم بدأت تبتكر كلمات وأشكالاً لتدوينها وكتابتها. بدأت تتشكل لغة إنسانية تتطور كل يوم على يد امرأة صقلت مهاراتها وحدها، دون مباركة أي إله. مع ظهور المنقذ ظنت أن ملاكاً سيهبط من السماء، ليحمل الخطاب والكلمة، وربما سيفاً سماوياً، أو حتى عصا سحرية، لكن شيئاً من هذا لم يحدث. مرت ثلاث سنوات، وهي تطور مهارة الرجل وتروضه.

أصبح البطل نوعاً ما أكثر تهذيباً، ولكنه بحاجة أن يتعلم أكثر، وتكون له شخصية أكثر جاذبية، ليكون مقبولاً كنبي . استمرت نور بجمع العديد من الأفكار وتطورها، لتكون ديناً جديداً بنظام جديد وتعاليم ولغة وكلام، طالما أن السماء ظلت صامتة وجامدة. أصبح الرجل مطيعاً لها ومذعناً .

خلق دين جديد كخلق قصيدة طويلة فيها الدهشة والأمل، يُعاد فيها بعث الأحلام. بحثت نور عن وسيلة، فاكتشفت تأثير الموسيقا، والرقص المدهش على الحيوانات، وحتى النباتات والصخور. طورت العديد من ألحان الناي، وابتكرت عدة رقصات. بحثت في الطبيعة، فاكتشفت أكثر من آله موسيقية. مر العام الرابع، وكسب البطل الكثير من المهارات. قررت نور البدء في كسب مؤمنين وأتباع، لأن أي دين لا يمكن أن يكتمل إلا بتكوين مجتمع .

المرحلة الثانية لتكوين مجتمع ومناصرين كانت جمع مجموعات التلاميذ الذين تفرقوا في جماعات صغيرة في قمم الجبال المنعزلة. أخذت بطلها النبي، للبحث عن التلاميذ، بعد رحلة شاقة ومتخفية تم العثور على أول مجموعة. ولد أول مجتمع، وبدأت أول حضارة مدنية. ابتكرت نور العديد من التعاليم البسيطة، والصلاة مزيج من الرقص والغناء عند الشروق والغروب. تم تكوين أول جيش صغير، تعلم بعض فنون الدفاع عن النفس.

اختارت نور مكاناً استراتيجياً على سفح جبل تتوفر فيه عناصر الحياة، بوجود الماء والطعام، وتم إرسال رسل لبقية مجموعات التلاميذ. مرت عدة أعوام لتكوين أول مجتمع حضاري، وأول ثقافة إنسانية جديدة. الاختبار الحقيقي هو المواجهة مع قوى الشر. حاولت نور تأجيل هذه المرحلة بالعمل السري، ولكن بعض المعلومات وصلت لقوى الشر، فحشدوا جيشاً للقضاء على الأمل الجديد.

لعب الموقع الإستراتيجي الذي اختارته نور دوراً كبيراً في حماية المجتمع الجديد أخذت نور دور القائد العام، وكان النبي مجرد واجهة اجتماعية. كانت هي الملاك والمعلم والموجه لكل شيء. استمرت المعركة الأولى لشهور طويلة.انتصرت فيها نور وجيشها ونبيها .

قبل المعركة الأولى نظمت نور مجتمعها ببعض التعاليم التي تحضّ على العفة ومنها محاولة تنظيم الجنس، بحيث تكون الممارسة في أماكن مغلقة، وليس في العلانية، تعاليم ستر العورة والعفة. ظل الجنس جماعياً في مجموعات صغيرة. اكتشف البطل أن نور لم تكن تعطيه ممارسة كاملة، لكنه أيضاً أحس بقيمتها الهامة له، وكان يشترك أحياناً في ممارسات الجنس الجماعية، ولأنه نبي ملك بعض المحظيات، وكوخاً خاصاً، ليمارس ملذاته.

بعد أول انتصار، وكسب أول معركة، حيث تراجعت الجيوش المحاصرة، وانفضت وكسب جيش نور الكثير من العتاد والطعام والأسرى من الرجال والنساء. بدأت نور عملية إدماج هؤلاء الأسرى في مجتمعها الجديد. انشغل البطل في الملذات. ثار الشك في ذهن نور عن تلك اللحظة التي وجدت فيه البطل. أدركت أنه ربما خُلقت اللحظة والمشهد من محض خيالها. تبدو تصرفاته حيوانية فجة وقبيحة كتصرفات كل الرجال، ولا توجد مميزات، ولو بسيطة مثله مثل الآخرين. أيقنت أن خيالها خلق لحظة البعث الجديد، وربما كان هذا الرجل شخصاً عادياً

جداً في حالة إغماء. بدأت تفكر في جعل السلطة بيد النساء، وأن تعيد تنظيم هذا المجتمع.

أدركت نور حجم الخطأ الذي ارتكبته بجعل هذا المخلوق العادي الشهواني نبياً ومنحته القداسة. بدأت تسحب البساط من تحت قدميه بهدوء. كان عليها أن تخترع إلهاً جميلاً تخيلته على صورتها، وبما أنها أذكى شخصية في هذا المجتمع الجديد، فلم يكن الموضوع مستحيلاً. أرادت أن يكون لهذا الرب قوة وسلطة، ولها كل القداسة، وعزل النبي الذي صنعته بيديها وعلمته ودربته. استمرت في تطوير مجتمعها، وربطه بها وحدها والرب الجديد. أصبحت بمثابة الكاهنة العليا، وجمعت حولها نساء قويات. بنت أول معبد، ونحتت تمثالاً ضخماً يشبهها سمته الرب. بدأت في تشريع طقوس العبادة والحياة وتشكيل الجيش وتدريبه أكثر، ثم بشن هجمات عسكرية، لتستحوذ على الجبال ويكون للمملكة التي تؤسسها أرض تزرع وبحر يأتي منه الخير. كانت فكرة الرب ساحرة ومدهشة أحبها الناس، فصارت هي مصدر القداسة ومنبعها، انشغل البطل النبي في ملذاته الحيوانيه، خصصت له كوخاً بعيداً هو ومجموعة رفاق أحاطوا به وصاروا شلته وحاشيته. تخلصت من المعاشرة الجنسية مع البطل، وصار المعبد بيتها ومقر الحكم الحقيقي. شكلت قوة خاصة لحمايتها وحماية الرب.

رويداً رويداً قدرت أن تكون هي كل شيء، فهي الكاهنة والرب أيضاً، تشرع وتسن القوانين، وتمد المملكة من الجهات الأربع. ظلت

تراقـب كل خطـوات البطل الـذي لم يعد يذكـر كثيراً كنبـي. أنتج ذكاء نـور الكثـير من التشريعات المهمة التي تعطي السـلطة للنسـاء، وتحد من سـلطة الرجال. فكرة البيت والأسرة بدأت تتشكل، لكن ليس كما كانت في الحضارات السـابقة، حيث أصبح الكوخ يضم عدداً قليلاً من الرجال والنسـاء يشتركون في الجنس وتربية الأولاد، وواجبات تجاه الرب والمعبد والكاهنـة. تراجـع ذكر النبي، ولم يكـن يحضر طقوس العبـادة. عزلته في منفى مع ملذاته ورفاقه، ولم يعترض أحد. لم تكن مملكة نور مملكة فاضلة تمامـاً، لكنها حققت القليل من العـدل والكرامة، فأصبحت مقصداً لكل البؤساء والضعفاء.

كانت حاشـية النبي تتقلص، ولم تعد له أي سـلطات، لأن السـلطات والقداسـة ذهبت إلى الكاهنة وحدها، حيث كانت تأمر بالسـجود للرب ولهـا، لتحمي سـلطاتها، وتسـتكمل مشروعهـا الذي بدأ ينضـج، ويثمر المحبة والإعجاب، وكذلك الأعداء، لتحصين جبهتها الداخلية تخلصت من النبي ورفاقه، ولم يلق غيابه ومصرعة أي اهتمام ولا تعاطف.

هـذا المجتمع الجديـد المحمي بالجغرافيـا، وبعقلية الكاهنـة العبقرية. كرست جهودها لتجنيد النساء القويات، وتدريبهن وجعلهن القائدات، كما شكلت مجلس كاهنات من الذكيات، لتطوير الدين والكتابة والتربية. انخفضـت درجة الرجال لمرتبة أقل من النسـاء. خصصت للرجال المهن العليا الشـاقة، وللنسـاء المهن الأكثر رقياً ورفعة. اختفت مشـاهد كانت عاديـة ويوميـة مثل سـير النسـاء عاريـات، وتعرضهن للعنـف من أجل

الجنس. تطورت القوانين الداعمة للمرأة، وخلال فترة قصيرة تسارعت الإنجازات، ليظهر العمران والتمدن. بدأت نور تعطي لنفسها مكانة أكبر من الرب، شعرت أن كل هذه أفكارها هي وحدها لماذا تكون في المرتبة الثانية إذن؟

الصفقة

كنت طفل الطين، مدينتي الريفية يُلقي عليها البحر التحية في الصباح والمساء. تحفها أشجار النخيل من الجهات الأربع. الماء بلون الزمرد، والشمس تسطع طوال العام. بيوتها من طين وحجر، هكذا بنيت بيوتها وأزقتها الواسعة قبل أن يصل الحديد والإسمنت، والأبواب الحديدية التي تصدأ كل عام، لذلك أصبح غالبية السكان يطلون الأبواب بمناسبة عيد الثورة، لكنها تعود وتصدأ مرة أخرى .

لا أحد يتبرع ببعض الوقت لجمع الأكياس البلاستيكية المستخدمة التي تعلق في رئة الأشجار، فتسبب لها ضيقاً تنفسياً، وتأخراً في التمثيل الضوئي. لا تستطيع الأشجار أن تمد ظلها بشكل مريح، منذ تهافت الناس للاستيلاء على الساحات العامة. ضاق صدر الأزقة، ولم تعد تُنبت حكايات جديدة.

يتجول علوان في الأسواق كعادته يحذر من الوحش الإسمنتي، ويبكي المدينة الطينية الطيبة. بيوتها الطينية والرجال والنساء كانوا معجونين من طين. عطر الطين الذي يمتزج مع الياسمين، وبخور المستكة كان يغري الملائكة، للهبوط على الأسقف الباردة والسمر، وبعض الثرثرة عن أحوال السماء، والقرارات الجديدة التي تؤثر في حياة البشر.

وحده علوان يؤمن أن المستقبل مظلم لو أكل الإسمنت ما تبقى

مـن طين. في اجتماع المجلـس البلدي بكى علوان رافضـاً الخطط الجديدة لتطوير المدينة، والتي تهدف أن تكون الجدران الداخلية إسـمنتية، ويكون الديكـور الخارجي طيناً، أو ألواناً تشـبه الطين، بحيث تظل المدينة ضمن التراث الإنساني في قائمة منظمة اليونسكو.

صرخ فيهـم : هـل تقبلـون بقبور مـن حديـد وإسـمنت؟ نحن أهل الطيبـة، قلوبنـا مـن طـين كبيوتنـا، صدورنـا واسـعة كبيوتنا، الأشـعار والأغاني والأهازيج ثرثرة عطر الطين .

الجميع كان متحمسـاً للخطة الجديدة، والتي تمولها جهة غير معروفة، وهناك تفاصيل كثيرة لم يتم شرحها في العقود التي يقوم الأهالي بتوقيعها. الواضـح فقـط أن التجديـد سـيطال المدينـة كلهـا، وتصبح إسـمنتية مع ديكورات وتلوين الجدران بملونات كيماوية ذات لون طيني .

المبالغ المالية مغرية وكبيرة لكل من يبيع جدرانه وسقفه الطيني .

لم يصـدق أحـد تحذيرات علوان وصرخاتـه، بل إنه دق الأبـواب باباً باباً، ورأيته يجثو على ركبتيه مترجياً بعضهم، لعدم قبول الصفقة.

تمـت الصفقـة بـكل الألاعيب، انتزعـوا بيت علـوان، وآخر شـجرة نخيـل. وضعـوا الزينة وجملوا الشـوارع بأشـجار بلاسـتيكية. لم يتحمل علوان الصدمة، طار قلبه إلى السماء في شكل حمامة.

كانت الأضواء اللامعة، وطراوة البلاسـتيك الجديد. ظن الناس أنهم دخلـوا المدنية من أوسـع أبوابها، مضى الليل المعـاق، وانخدعت النجوم

في الليلـة الأولى، في الصباح مع بواكـير الإشراق والنهوض، كان الجميع متحمسـاً لبدايـة حياة جديدة عصرية. حاول أهـل المدينة النهوض، لكن أحـداً لم يقدر. شـعروا أن القلـوب التي في الصدور ثقيلة ثقل الإسـمنت والحديد الصلب.

حياة جامدة

حيـاتي جامـدة وخاملة بدونـكِ. أدركت هـذا منذ مغادرتـكِ. بقيت أحـاول التعايـش مع نفسي الجديدة، والغريبة أيضاً. أتسـاءل قبل نومي : هل ستكونين أول الأحلام، أم آخرها هذه الليلة؟

كان لي ملاك وصديق من الجن، وبعض الشياطين الماهرين في الغواية يرغبون في صداقتي.

من هم الشعراء؟ من هم الفنانون؟

هـم كل المتناقضات، يسـبحون في حديقة الجنـون، وكنت أظن نفسي واحداً منهم. شيء ما سقط على رأسي، وأنا في الحانة، عاد جزء من عقلي، لا أدري كم نسبة العقل والجنون الآن؟

تخترقني الأيام الجديدة، غداً وبعد الغد، وأنا تحت مظلة الضوء، المطر يتجنبنـي .. مـن عاداته أن يبلل وجهي قليلاً، ولـو بقطرات قبل مغادرته إلى حي، أو بلد آخر.

أتذكـر الراعـي الصغير جعـل أحلامي ترقـص، عندما كنـت طفلاً، لكنها الآن تبكي كلما تذكرت ذلك اللحن.

مازلت على رصيف الحانة، أكملت الكأس الأول، وأنا أتأمل السـماء التي تفتح فخذيها بطريقة مثيرة، تسـقط على الطاولة فراشـة، لا تبدي أي حـراك، أنظـر إلى الأعلى. هـل ولدتها السـماء ميتة؟! بقيت أنظـر إليها في

شـفقة، للحظـات قبل أن تـأتي النادلة بكأسي الثاني ، وتمسـح الطاولة، بما عليها من بعض رماد سـجائري والفراشـة الميتة، لكنها قبل لحظة واحدة من قدوم النادلة تنهض وتطير.

في بداية انطلاقتها طارت بشكل متعرج، كمن يبحث عن مخبأ، من شيء مـا وخطر محدق، ثم رأيتها تتجه إلى بـاب الحانة، بقيت أتابعها من خلف اللوح الزجاجي، رأيتها تتجه إلى البار ورفوف القناني الملونة. نهضت من مـكاني يدفعني الفضول، مشـتتة نظراتي، حدقـت في كل شيء، لم أجدها. خلال خروجي للمغادرة عكسـت المرايا وجهي، اقتربت، أصابني الذعر .. المرايا عكسـت وجهاً رسم الزمن عليه كل تجاعيد الهرم والخرف. يدي ترتعـش، وأنا أرفعها ببطء نحو وجهي هنا أمسـكت يدي يد ناعمة لفتاة شـابة، وهي تبتسـم: جدي الحبيب دعني أساعدك للخروج. حان موعد عودتـك إلى دار رعايـة المسـنين بقيت متسـمراً وجامداً، وغـير مصدق. ابتسـمت مرة أخرى، وقبلتني في خدي وهي تردد: لا تقلق سـأعود نهاية الأسـبوع القادم، وآخذك في جولة وسـط المدينة، وتكمـل لي حكاياتك، وحكاية الفراشة الميتة التي تبحث عنها.

بحث

وأنا أسير باتجاه النافورة وسط المدينة وجدتها معطلة، ويبدو أن عمال المدينة لم يبلغوا السلطات عن هذا العطل. توقف تدفق الماء، لم يعد المكان مغرياً للعشاق. أعلم أني لن أجدك هنا، ولن أجدكِ في الحديقة المجاورة للنافورة. هنالك أيضاً العطل أصاب شبكة ري الأشجار، والتي بدت شاحبة، كنا كلما مررنا من هنا نتسابق أنا وأنتِ وظلال الأشجار.

أجلس في زاوية مقهى بعيداً عن الضجيج، أسترجع شريط الذكريات السعيدة، وربما تحضر في ذهني قصيدة أو خاطرة، الأفكار في هذه المدينة لا تهطل كما يهطل المطر، ولا تتحرك في داخلنا كحركة الريح، بجانبي كانت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها مصابة بالارتباك تتحدث إلى صديقاتها عن الغلاء الفاحش وصعوبة الحياة ولم تذكر حبيبها. كانت تبكي بمرارة لقسوة الحياة، وفقدانها التوازن.

قرب المحطات نساء ورجال يخفون قلقهم من الغد، يتأملون القطارات التي تغادر فارغة. ارتعاشات مقلقة تهز الأشجار، والأبنية الواقفة هناك منذ سنوات طويلة. الشجر يفتح صدوره للريح، ويغسل رؤوسه من المطر، يحتضن أعشاش العصافير وهم يغنون .

لم أجدك عند بوابة المحطات، ولا في ذلك الفراغ الذي ينتشر ويتكاثر،

مما يجعلني أشعر بلفحات البرد، ويزيد ارتعاشي الداخلي. ليت عيني تغمضان بداخلك إلى الأبد وينام قلبي فيك فلا يستيقظ.

لا أدري ما هي أمنياتك الآن؟

ربما تتمنين ألا نلتقي ولو مصادفة.

وددت سماع أغاني قلبك، سأترك روحي تحلق مع الريح، تكلم الرب، لعله يربت بكفه المقدسة، ويرزقها النسيان.

عالمنا أصبح صامتاً وغريباً! فقط الورود تحتفظ بعاداتها تنثر الابتسامات والعطر والألوان الزاهية.

لا أمتلك مميزات خارقة ولا خاصة، مثلي مثل الأشجار المرتعشة، تمضغني الريح في فمها الضخم، ثم تقذف بي وبقايا الأوراق والأغصان اليابسة.

أورفيوس

ليلـة تخطى أورفيـوس الضفة الأخـرى من نافـذة المرايـا، ليلتها نسي غليونه وقيثارته، سكبت الملائكة عشرة أقداح من النبيذ، كنت ثملاً.

لم أتابع تفاصيل الحدث في الصباحات الباكرة. كنت أبحث عن زهرة النرجس، وجدت قطرات الندى جائعة، العتمة تكبر كلما طال الفراق.

بينما النهر يغسـل أوسـاخه، ويحـاول التخلص من العفونـة، ورائحة صـدأ قوارب غرقـت بقاعه العميق، قارب أورفيـوس كان قوياً ومتميزاً صنعـه من أخشـاب نـادرة، وطلاه بـدم كبد طـاووس ضخـم. كان من المفروض ألا يغرق، لكن مؤامرة ما دبرتها عشيقته الأولى، أعطته بكارتها، والكثـير من الأغاني، وعدها بجزيرة فردوسـية، لكنه وقـع في حب أنثى أخرى أغرته بالرقص.

رسـم جان كوكتو وجه أورفيوس يسـيل منه الكثير من الدم، تاج من الشـوك وقيـود وجبة صوفية ممزقـة، كان رأس أورفيـوس مثقوباً، والدم المتخثر يجعل رؤية الملامح صعبة.

في غرفة التشريح التقطوا الكثير من الصور الفوتغرافية، لم يجدو بطاقة مدنية ولا أوراق القصيدة التي كتبها قبل العاصفة. في الجريدة الصباحية

لم يأبه أحد للخبر العابر. كنت أستمع لمرثية محزنة كتبها صديقي جان بير ديبوي في رثاء أورفيوس العاشق.

بعد مغادرتي مقهى المسرح سمعت ضجيج القطار ونباح الريح، عدت إلى ضفة النهر، كان أورفيوس يعزف على قيثارته، يدخن بشراهة مفرطة، دخان غليونه يحجب الرؤية، لا أدري ماذا سيحدث بعد ذلك؟

ليلة العيد

يسير برأس ثقيل، رؤية مشوشة، إنها أيام أعياد والفرح والتهاني، والكروت الإلكترونية الأتوماتيكية تصله من عشرات الأصدقاء. ليلة العيد تكون الكتابة صعبة والقصيدة محزنة، فهو البعيد عن وطنه تفصله عنه مسافات يصعب قياسها بالأميال، عليه أن يبتسم، ويرد على هذا الكم الكبير من الرسائل، أو ينشر تغريدة عامة تكون غير منقولة ولا مقلدة.

يكتب إليها في رسالة ستظل معه، سيحتفظ بها، أو يدمجها في قصة أو نص، يكتب لها:

ليتني حديقتك الصغيرة
تحرثينها، تزيلين كل الحشايش الضارة التي تتسلق الأغصان
تلك التي تقيد الجذوع والأطراف
تلك التي تقبض على الصدر، وتمزق الأحشاء
أخضر، أخضر قلبي يقاوم اليباس،
والأرض هناك تقاوم التصحر
هناك.. النمل يركض لعله يجد حبات أرز، أو فتات خبز يابس
والأطفال هناك يلبسون ثياباً قديمة
يقبل الربيع ويذهب
تتفتح الزهرات وتذبل

يورد الياسمين ثم ينشف عطره
لا أحد يشعر بالمتغيرات
لا أحد يحزن لموت الفراشات الملونة هنا وهناك.

بين هنا وهناك يجد نفسه مبعثراً بين أرض بعيدة وحبيبة غادرت، ولم تعد وبحث عن الذات.

يشعر بالشتات، قلبه المضطرب يتلهف لحدث جديد، خبر مفرح، بحلم أن يكون على الشاطئ، والقوارب الشراعية تقترب ببطء تسبقها موجات ناعمة وأهازيج الصيادين في الجهة الأخرى من البحر يرى الوديان تتدفق من ضرع السماء .

هناك تنمو حياة النباتات الصغيرة، والكثير من العشب عبر الكثير من الطرق الترابية والسهول وسفوح الجبال تحترق، تموت ثم تنمو مرة أخرى. تغزو روائح الزهور والورود أطراف القرى والمدن. تملأ الأوراق المتساقطات طيات ملابس الأطفال الذين يلعبون، أو يذهبون لجمع الحطب، وملابس الباحثات عن الماء العذب ورؤوس الصيادين الباحثين عن شيء يؤكل. تهرب الطيور الى قمم الجبال العالية جداً والجزر النائية، حيث البشر قليلون، ولم يتعلموا بعد الصيد العنيف.

تسأله أمه: متى سيعود ؟

يقف أمام النافذة، يفتحها، يرفع بصره إلى السماء، قمر ليلة العيد يبدو بعيداً كالعرجون الصغير. يسقط المطر، ويتغلغل في التراب والأرصفة،

يخيـل له لو أنه حفر شـبراً في حديقة لعب الأطفال الصغيرة سـيجد الماء، يمكنه أن يغترف إبريقاً ليسقي زهور النوافذ والشرفات.

بهدوء ينتظر طويلاً، يعجز أن يرد على سـؤال أمه. يوم بعد يوم، شـهر بعـد شـهر والأعـوام تمضي. هنـا وجهـه مغطى بالضبـاب.. هنـاك المدن والقـرى يغطيها الرماد والأدخنة السـامة، تبعثـرت الأماكن التى خزنت أفراح الطفولة، وأصبحت أماكن مفجعة. ساحات مظلمة ورذاذ البارود وأجسـاد محترقة، يهمس لنفسه والليل والسـحب الداكنة : بيتنا كان أبعد مـن حوافـر الغيـم. كانت هنـاك زهور تفـوح بالعطـر والأرض تفترش الأخضر، والشمس تشرق من الشرق كل صباح.

يظل يتأمل الخيوط الأخيرة من سطر الليل، تشرق شمس العيد حافية بلا ذيل ولا أجنحة.

السيرة الذاتية

- حميد عقبي
- كاتب ومخرج سينمائي ومسرحي وفنان تشكيلي يمني مقيم في فرنسا
- أنتج وأخرج ثمانية أفلام سينمائية قصيرة
- كتب 25 نصاً مسرحياً، طبعت بعضها إليكترونياً
- صدر له موخراً ديوان شعري بعنوان ملاك موت بلا وطن عن دار منشورات كناية في السويد
- تصدر له ثلاثة كتب عن دار دروايش
- ديوان شعري تشيخ المدن بعد رصاصة حرب واحدة
- مجموعة قصصية ثقوب
- سيناريو أقنعة
- أقام ثمانية معارض تشكيلية في فرنسا
- له ثلاثون كتابا نُشر منها سبعة كتب في النقد السينمائي ومجموعتان قصصيتان وأربعة نصوص مسرحية وكتاب باللغة الفرنسية مدخل لفهم السينما الشعرية
- مؤسس ويرأس المنتدى العربي الأوروبي للسينما والمسرح في فرنسا منذ تأسيسه في 2019 ، وينشط في إعداد برامج وندوات وملتقيات ثقافية وفنية وأدبية متنوعة افتراضيا وواقعيا عبر صالون المنتدى في باريس.

- شـارك في الكثير من النـدوات والمؤتمرات السـينمائية والأدبية الدولية والعربية
- صحفي بمجلة كل العرب في باريس وينشر في عدد من المنابر العربية والدولية
- عضو في عدد من الجمعيات الفنية في فرنسا.

الفهرس

العم عمر
رجفة
سهرة بيجاما
فتاة المولون روج
انتظارات
ليلة ساخنة في بيجال
العاهرة
لا شيء في مكانه هنا!
حالة
طقوس
جزيرة الذهب
ثقوب
أبو صالح سلطان الرجالِ
ثلاث حالات
بيل فيل
السعادة على الطريقة اليمنية
النخلة مريم
رؤوس مبتسمة

المغادرة 1ـ3
رغوة 1ـ3
الثوري
يوم عيد الموتى
جنازتي
حكاية نور
الصفقة
حياة جامدة
بحث
أورفيوس
ليلة العيد